الخروج من...

الدائرة الحمراء

تأليف

أَبِي بَكْرٍ العَدَنِي ابن عَلِيّ بن أَبِي بَكْرٍ المَشْهُور



الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤٢٢ هـ / يوليو ٢٠٠١ م


بسم الله الرحمن الرحيم



الــمقدمة

الحمد للّه رب العالـمين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلـم، وبعدُ فقد كان الانتقال من عالـم الكبت والإرهاب إلى فضاء الحرية والتعبير النسبي أهم عوامل الكتابة، إضافة إلى أنَّ العديد من ملاحظاتي التي سجلتها في عدن إبان دراستي واحتكاكي في محيط عملي كانت قد أَثْرَتْ فكرة الكتابة في هذا الشأن، وكنت خلال عملي ودراستي في جنوب الوطن أشعر بثقل الكابوس القابع على الأمة كلها من خلال معاناة جنوب الوطن وأهله، وخاصة بعيد انكشاف العورات الإلحادية على حقيقتها، وانخداع قطاع واسع من شباب الأمة بها.

بواعث التأليف

وبطبيعة الشاب الطموح الذي يرغب في صنعِ موقفٍ ما عندما يجد في ذاته الاستعداد؛ كان طموحي أن يتحقق للأمة الإسلامية «بعض أمانيها الواعدة» من خلال مجريات التحول.

ومع مزيدِ احتكاكٍ بالتحولات وعواملها ورموزها أيقنتُ أنَّ المسألةَ أكبر من حجمِ مدركاتِ الذهنِ القاصر.. وأن هناك وقتاً طويلاً قد هُدر من عمر الأمة في الانحدار.. وأنه من الصعب جداً أن يسير المرء عكس التيار.. فكان لابد من محاذاته.. مع عدم الوقوع في تـموّجاته..

وقد سجلتْ مذَكَّراتي الشخصية عشراتِ الملاحظاتِ المعبرةَ عن هذه اللواعج والرغبات، منها ما كان نثراً، ومنها جاء شعراً.

الوضع الاجتماعي والعلمي للكاتب في تلك الفترة

وقد كنتُ إبان مرحلة التحولات السياسية والاجتماعية في الوطن أحد شباب المنطقة المندفعين بحماس نحو التحول والتغيير استجابةً للظروف المحلية والعالمية، دون هويةٍ سياسيةٍ أو انتماءٍ عقائديّ، وقد كان والدي باعتباره أحد رجال الدعوة الإسلامية ومعلماً شرعياً للمواد الإسلامية في البلاد؛ كان حماسُه للدين وتطبيق الشريعة عاملاً مساعداً على الاهتمام بشأن التحولات من عصر الاستعمار إلى عصر الاستقلال، وكنا جميعاً نجهل حقيقة الاستعمار، ونجهل ما تخططه الدوائر من سياسة الاستهتار، بل كان يجهل هذه الحقيقة كبار الأحرار في مسيرات التحول.

وكنتُ أشعرُ بمسؤوليّاتي نحو الدين والإسلام كثُراتٍ أَلِفْتُ الكلامَ عنه والدفاع عن مبادئه منذ نعومة أظفاري، بل كان حرص والدي على تربيتي بطريقته الخاصة دونَ السماح لي بالدخول في خضمّ المعركة المعرفية المدرسيّة أعظم الأثر في تركيبات ذاتي النفسية.

ولما كانت سياسةُ التحولاتِ قائمةً على خداع الشعوب وتضليلها؛ فقد كنا نسمع ونقرأ الشعارات ونتفاعل معها على أساس التفاؤل في التغيير إلى منهجٍ إسلاميٍّ يعيد الحق إلى نصابه.

وهكذا كان السياسيون يقولون، وهكذا يُفَسّرون قراراتهم في أغلب الأحيان، وكان والدي في أحايينَ كثيرةً يحسّ رائحةَ الزيف المغلّف بالإسلام فيحذرنا من مغبّة الانطلاق في تيارات الحماس، وفي بعض الظروف قد يلجأ إلى العقاب، وخاصة عندما رأى شكاوى العديد من شباب المرحلة على أسلوب تربيته لنا، وبدؤوا يتمرحلون في نقد القضايا الدينية، ويفسرون مواقف الدين بالتحجّر والكهنوت والرجعية.

وقد حاولتُ أن أضع الكثير من انطباعاتي المتدرجة بتدرج المراحل في كتابي «فيض الذكريات»(١) وهو المجموع الأوسع لذكريات حياتي الخاصة بدءاً من مرحلة الولادة حتى الخروج من الدائرة الحمراء، والذي يمثل هذا الكتاب الشطر الثاني منه، وقد تضمن بطريقة السرد القصصي مرحلة الاستعمار، وما حصل بعدها من التحولات والتغييرات في مرحلة الاستهتار(٢).

التمرحل الذاتي للكاتب في المفردات والمعاني وأسلوب التعبير

وأعتقد جازماً أن حصيلة المعارف تنشأ من لفيف الاطلاع والاحتكاك بالآخرين، وتشحذها بعد ذلك المواهب والاستعدادات وأساليب التنشئة والطبيعة الفطرية التي يهيئها اللّه لعباده كي تنفّذ في هذا الوجود أمراً معيناً، وهدفاً محدداً هو تدبير اللّه.

وكانت غاياتي منذ صغري الاستزادة في المعرفة والتحصيل العلمي بغير حدود، إلا أنَّ زاوية الارتباط بوالدي وَجَّه هذه المعرفة

---

(١) الشطر الأول منه بعنوان « الحفر على جدار الذاكرة.. رحلة الحياة بين الواقع والقواقع » والشطر الثاني هذا الكتاب .

(٢) يقصد بمرحلة الاستعمار مرحلة امتداد السياسة البريطانية في عدن والمحميات وما أثمرته في الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وبمرحلة الاستهتار مرحلة ما بعد الاستقلال وكشف الجناح الإلحادي أقنعة الحرب ضد الإسلام، ويعتبر هذا المصطلح –مرحلة الاستهتار– من اختيار المؤلف لهذه المرحلة، ويعبر عن الصورة الغريبة التي مثلها منظرو المرحلة في استهتارهم وعدم مبالاتهم بالتقاليد والأعراف والعلاقات الاجتماعية المتوارثة وثوابت الدين الإسلامي، اقتداء بنظريات الشيوعية العالمية التي كانوا يتحدثون باسمها.

والتحصيل إلى نماذجَ شرعيةٍ ودينيةٍ وسلوكيةٍ محدَّدة، ومن خلال هذا الارتباط الفريد بين إخواني كان يُقَوْلِبُ توجُّهاتي وسياسةَ ذاتي نحو هدف منشودٍ في ذهنه، فإذا رأى منيّ الانطلاق في المعارف العل ـمية لغويةً وقرآنيةً وفقهيةً كان يفرح ويزداد سروراً ويشجعني على ذلك، وقد يبسط لي باب الترغيب بالهدايا المغرية، وإذا ما لاحظ مني الانصراف إلى مدارس العصر والعلوم الأجنبية كاللغة الإنجليزية مثلاً أو ما لا حاجة لي به في مسيرة الطموح الموجَّه يبدي الامتعاض وعدم الارتياح.

وبالطبع كانت مسيرة الارتباط مع سيدي الوالد هي أطول مرحلة حَشَتْ ذهني وعقلي بالـ ـمعرفة، وخاصة أن مكتبتنا كانت غنية بالـ ـمؤلفات والـ ـمراجع، ومثل ذلك المجالس العل ـمية ليلاً ونهاراً في المدرسة والبيت وفي أوقات الصباح والـ ـمساء.

ولـ ـما جاء عصر التحولات -وكنتُ حينها في أوج مرحلة الشباب- فوجئتُ بعدم جدوى دراساتي الذاتية ذات الارتباط بالـ ـمترل والـ ـمكتبة لدى أهل المدارس وحملة الشهادات، وكدتُ أن أُحْبَطَ أمام جيل المدارس الحديثة، لولا أن طرأتْ فكرةُ الانتساب لصفوف المدرسة الحديثة لحوز الشهادة المعتبرة لدى أشكال التربية والتعليم.

وأثناء هذه المعركة المعرفية للحصول على الشهادة هبتْ رياحُ الانتفاضاتِ ورحل والدي من اليمن إلى السعودية نافذاً بجلده من إرهاب العصابات الإلحادية، واستأذنتُه في مواصلة دراستي العل ـمية في المدارس الحديثة فأذن لي عن طريق الانتساب، فتجاوزتُ خلال

أعوام عدة مراحل حتى بلغت الجامعة، وخلالها تعرضتُ للكثير من الإرهاصات النفسية والاجتماعية؛ ولكنها متَّنَتْ علاقتي بالمعرفة حتى أكملتُ مرحلة «الدبلوم في اللغة العربية والتربية وطرق التدريس» .

وكانت هذه المرحلة ذات تأثير بليغ في حياتي المعرفية وفي تطوير القاموس اللغوي والفكري وفي معرفة الخطوط الأولية التي تنطلق منها سياسة الأعداء ضد الدين وأهله، وعرفتُ من خلال تعمق الملاحظة ومن تباينِ الأطروحات الفكرية التي يطرقها المتخصصون بأن هناك «حرْباً خَفِيّةً ومنظّمةً» ضد الإسلام بعمومه، وبقيت هذه الأحاسيس تجتاح ذهني طيلةَ مرحلةَ دراستي الجامعيةَ وما بعدها حتى سفري إلى الخارج، وتُلزمني أن أضع شيئاً، وأن أقول شيئاً في وجه الشر المقنن.

ولهذا جاءت بعض الأشعار معبرةً عن هذه الحالة[١]، وكذلك بعض

(١) كأبيات في مقولات عوض الحامد التي قال فيها:

وغداً ستنتصرُ الطبيعةْ..

وسيسقطُ اللاهوتُ مركبةُ الغزاةْ..

قلتُ فيها بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٣٩١ هـ . (١٢/٢/١٩٧٢ م) بأحور:

يا مَن كَفَرْتَ وقُلتَ: [تَنْتَصِرُ الطّبيعَةْ]..

[ولْيَسْقُطِ اللاهوتُ مركبةُ الغزاةْ]..

وديانةُ الإسلامِ..

يا أغبى الأنامِ..

تَلُوكُها لَوْكَ اللُبانَةِ بينَ أشداقِ القَطِيعةْ..

وأتيتَ تُسمعني..

وتُسمعُ أمّتي..
أفكارَك الدُّنيا الصَّرِيعةْ..
وتقولُ: لا إيمانَ..
لا قرآنَ.. لا رَبَّ نُطيعَهْ..
لا غيبَ لا مَلَكُوتْ..
ولْيَسْقُطِ الكَهَنُوتْ..
والقرآنُ فلسفةٌ مُضِيعةْ..
العلمُ يَرْفُضُ عُقدَةَ الأخلاقْ..
والرّزّاقْ..
والآتي القريبَ..
وساعةَ الهتكِ السريعةْ..
...
[وغداً ستَنْصاعُ الطَّبِيعَةُ للجَدَلْ]..
أَيُّ جَدَلْ؟!..
جَدَلُ اللسانِ القاصرِ المهزولِ..
في يَمِّ الحياةْ..
جَدَلُ التَّمَحْوُرِ في المضامينِ الدخيلةِ..
والعَمالاتِ الرّذيلةِ..
والغزاةْ..
وكَفَرْتَ في فَخْرٍ..
وتَسْرُدُ لي أقاصيصاً مُثيرةْ..
الكونُ كيف أتى وهل أَبْدَى ضَميرَهْ..
والغيبُ والأشباحُ والروحُ الأسيرةْ..
أسطورةُ الدّينِ الشّهيرةْ..
...

قُل لي –هداكَ اللّه– يا رَبّ المفاهيمِ الأجيرةْ..
يا مَن عرفتَ الكونَ..
والتاريخَ.. والسُّدُمَ الكبيرةْ..
ما بينَ فَيشَاتٍ وبيرَةْ..
فتقولُ في الدّيّانِ..
والأديانِ..
والكتبِ المُنيرةْ..
وشَرِقْتَ بالإلحادِ والأوغادِ..
مِن زُمَرِ الفسادِ..
عناصرِ المسخِ الحقيرةْ..
فإليكَ يا أوهى ضَميرٍ في الوجودْ..
وإلى طوابيرِ الجحودْ..
وعسكرِ الجهلِ المدجّجِ في الجزيرةْ..
كبّلتُمُ الإنسانَ بالوعي المضرّجِ بالدِّما..
وأَهَنْتُمُ التفكيرَ مثلَ الإِنتما..
أَرْغَمْتُمُوهُ على التّمَرُّدِ والصراعْ..
ولِبَذْرِ أسبابِ النّزاعْ..
حتّى النُّخاعْ..
أَسَّسْتُمُ مجداً على مليونَ مَسْحُولٍ..
ومقتولٍ.. وأرملةٍ..
وجمهرةِ الجِياعْ..
...
وغداً كما قُلْتُمْ..
[وغداً سينصاعُ الجَدَلْ]..
لمبادئِ الإسلامِ والإيمانِ..

الردود الفكرية على بعض مقولات المفكّرين والكتّاب[1].

في حُلَلٍ رَفيعَةْ..
ويذوبُ فِكْرُ المُغْرِضِينْ..
المارقينْ..
شرائحِ الغزوِ الوضيعةْ..
وغداً سيَندُبُ حظَّه المخذولَ..
في سَقَرِ القطيعةْ..
...
سبحانك اللهمَّ هذا مُنْكَرٌ..
اغْفِرْ لشِعري أن يُذِيعَه..
أنا مسلمٌ..
أَعتَزُّ أنّي مسلمٌ..
فلْتُحْيِني يا رَبِّ مأمونَ الخديعةْ..
أنا فيك يا مولاي أَنْثُرُ قُوَّتي الدُّنيا..
لِتُلْهِمَني التُّقَى..
والإِتِّكالَ على أحاجِيكَ المَنِيعَةْ..
...
واهْدِ الرِّفاقَ فإِنَّهُمْ..
في أَبْحُرٍ سُودٍ مُرِيعَةْ..
صَنَعُوا القَطِيعَةْ..
وتَبَوَّؤُوا عَرْشَ الخَرابِ..
لأَرْضِنا الخَضْرَا البَدِيعَةْ..

(١) كمدوّنات في الرد على الدكتور صادق العظم، وتعليقات على قصيدة «الكتابة بالسيف» وقد نقلنا عنهما في ثنايا كتابنا «الرموز والأصابع»، و

وفي تلك المرحلة كنت أكتب آرائي وأفكاري من زاوية المدرسة التي رُبِّيتُ عليها وعاصرتها في حياتي الدينية، ولم أكن على علم واسع بما يدور في بلاد العالم الإسلامي من صراع آخر باسم الإسلام ضد أهل الإسلام إلا شيئاً ضئيلاً لا يصل إلى حد القطع والتأكد.

ولهذا كان لابد لي بعد سفري من الوطن إلى خارجه أن أمرّ ببرزخٍ معرفيٍّ ونفسيٍّ خطير.. وخطيرٍ جداً.. لأضع كلَّ معرفتي ودراستي في محك الاختبار وجهاً لوجهٍ أمامَ مدرسةٍ دينيةٍ واجتماعيةٍ أخرى جعلتني أحتار كثيراً في أمر الواقع المتنوع، وأبدأ مسيرةً معرفيةً جديدةً تجمع من حصيلة المراحل التي مررتُ بها في حياتي وبين ما أسمع وأقرأ وأشاهد في المجتمع الجديد.

وكان من قدر اللّه ولطيف تدبيره أن اهتم والدي بما يراه من ملاحظاتي ورغباتي العلمية وأدخلني تجربةً هامةً في المَهْجَر، حيث كلّفني منذ وصولي بالإمامة والخطابة في المسجد الذي كان يؤمّ الناس فيه، وحينها دخلتُ تجربةً هامةً جداً وخاصةً في معركة المعارف الشرعية داخل مجتمعٍ دينيٍّ يختلفُ عن سابق تجربتي الأولى في كثير من القضايا والمسائل.

فبدأتُ في إعداد الدروس الفقهية والحديثية وإعداد خطب الجمعة بأسلوبٍ مدروسٍ ومتّزنٍ يجمع بين نصاعة الدعوة التي أمثلها ويمثلها

((لا يا نَوال)) ردا على ما كتبته نوال السعداوي ((الوجه العاري للمرأة المسلمة)).

أبي وبين متطلبات الواقع ورموزه دون إفراط ولا تفريط.

وخلال هذه الفترة التزمتُ القراءةَ والطلبَ العلميّ في مجالس شيخنا الإمام العلامة الحبيب عبدالقادر بن أحمد السقاف كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا الجمعة، فكان لهذه المجالس وما يدور فيها من مناقشاتٍ وقراءاتٍ وإضافاتٍ علميةٍ ومواقفَ عَمَليةٍ من شيخنا وعموم العلماء والأدباء وعامة الناس أثرٌ عميقٌ في إعادة صياغة المعرفة العلمية والعملية لديّ.

وكذلك كثرة المراجعات والقراءات والمتابعات في شروح الحديث واللغة وكتب الفقه وغيرها. كلُّها ساهمتْ في إدخال التجربةِ الذاتيةِ طوراً جديداً ومتنامياً كَشَفَ للعقل والقلب كثيراً من أسرار الحياة الإيمانية. وساعدتْ رغبتي الذاتية في التدوين والكتابة على بدء مرحلةٍ جديدةٍ من التأليف والتصنيف في شتى المجالات التي طرقتها منذ ذلك الحين إلى اليوم.

مرحلة التأليف كانت مقرونة بمرحلة التشطير قبل الوحدة المباركة

ولذلك يلاحظ القارئ المدقق بعض عبارات الرواية ذات المدلول التشطيري كقولي: جنوب اليمن، أو: في الشمال، أو غير ذلك، فالأصل أنها لا تمثلُ حالةَ المرحلةِ الراهنة، وإنما تشير إلى وقتها الذي كانت فيه، وقد أزلنا العبارات التشطيرية في كافة المواقع التي أمكن إزالتها وبقيتْ في مواقع تُومِئُ إلى تلك الحالة الماضية حكايةً عنها فقط وكشاهدٍ على سلبية المرحلة .

ملاحظات على بعض النقاط

وقد وردتْ بعضُ التعليقات على بعض المظاهر السلبية التي شاهدتُها خلال انتقالي من عدن إلى الحديدة وما جاورها، وكانتِ الحديدةُ حينها لا زالتْ غيرَ متكاملةِ النظام والانضباط، فالأصل في أوضاع البلاد ما هي عليه الآن، وأما ما كتبناه في هذه السيرة الذاتية فدلالته على مرحلةٍ قد انقضت ولا علاقة لها بالواقع المُعاش.

– وردت الإشارة إلى كلـمة « الدوائر الحمراء والخضراء »، وكان عنوان الكتاب «الخروج من الدائرة الحمراء»، وهذه المدلولات إنما هي اختياراتٌ لا تتجاوز الكتاب ذاته، ولا علاقة لها بواقع المنطقة التاريخي أو المعاصر. فالـمقصود « بالدائرة الحمراء » موقعُ الخوف والدم والقلق آنذاك، و« الدائرة الخضراء » موقعُ الاطمئنان والهدوء والاستقرار النسبي للكاتب آنذاك، ولا تسحب هذه التسمية نفسها على أبعد من ذلك إطلاقاً.

– هذه الأحداث جزءٌ من قصةِ حياةٍ متكاملة، بدأت بمرحلة الطفولة وانتهت بمرحلة الوصول إلى أرض الحجاز بعد الخروج من الوطن. وسيلحقها إن شاء اللّه جمعٌ خاصٌّ عن السنوات العشر الأولى التي قضيتها في العربية السعودية، يحمل بين دفتيه واقع التجربة الذاتية في تلك الزاوية من العالـم.

كما سيلحقها فصلٌ آخر عن مرحلةِ الصحوة، ومرحلة العودة إلى الوطن بعد سفر طويل، وما ترتب على هذه العودة من تحولاتٍ وتغيّراتٍ في الفكر والـمواقف والتصورات. واللّه أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير للجميع.

عدن – الجمعة

٢٩/٤/١٤٢٢ هـ

٢٠/٧/٢٠٠١ م

مدخل..

بسم اللّه الرحمن الرحيم . وأحمدُه تعالى على ما أولى من نعمةِ الإطلاق بعدَ القَيْد.. وحِفْظِ القلبِ من شَرِّ غَوائِلِ الزَّمَانِ والكَيْد.. وأجرى الأسبابَ على غيرِ مُتَوَقَّع.. وانفعَلَتِ الظُّروفُ انفعالاً أَخْرَجَ العقلَ عن مفطورِ الطَّبْعِ في درجةِ اعتيادِه.. مُطْلِقَةً كَوامِنَ النَّفْسِ إطلاقاً غيرَ ذي قِياس.. تندفعُ بها شُروطُ الحَرَكَةِ عَبرَ الحُدُود..

فأفاقتِ الجوارحُ على عالمٍ مَدِيد.. وبُعْدٍ مَكانِيٍّ جَدِيد.. وتَدَفَّقَ في القَلْبِ دافِقُ الحَيَوِيَّةِ مُهْتَزّاً بمَطَرِ الاطْمِئنان.. ما أَعْجَبَ هذا الإنسان !!

فإلى القارئ أَزُفُّ لَواعِجَ المعاناة.. حيثُ كانتْ تجربةُ المرارة.. ولم تكن معاناةٌ ذاتُ شِبْهٍ في غيرِ هذه القناةِ الشائكة.. إذِ اختلفَ الأُفُقُ الجَنُوبِيُّ عن آفاقِنا المعْتمةِ الأخرى.. فكانَ الاحمِرارُ قانياً أكثرَ مِن حمُرَةِ الدِّماء.. والأشلاءُ ممزَّقَةً تحت أديمِ السَّماء .. وصوتُ المذياع يَصيح:

سَحْقُ الكَهَنُوتِ وَاجِب..

سَحْقُ الإقْطَاعِ وَاجِب..

تحَريرُ المرْأةِ وَاجِب..

وتَزَاحمَتِ الوَاجِباتُ مَعَ الوَجَبات.. فكان ما كان.. واضْطُرَّ الكَثِيرُونَ أَنْ يَشْتَرُوا ماءَ الحَياءِ والحَياةِ بالخُرُوجِ مِنَ الأَوْطَان..



القِسْمُ الأَوَّل

مِنَ عَدَنٍ إلى الحُدَيْدَة

التَّقْرِيرُ الأول

وتَرَكْتُ الدائرةَ الحَمْرا ... أَتخطّى الجَرْحَى والأَسْرَى
أَتواثَبُ تحتَ خيُوطِ الفَجْ . ... ـرِ لأَعْبُرَ رَسْماً مُقْفَرّا
أَشباحٌ تَأْسِرُ ذاكِرَتي ... وأَمانٍ تَبْعَثُني حُرّا
وزِحامٌ يُعْتـ ـم أبصاري ... قَدَمي تَتعَثَّرُ في الأُخْرَى
أَيَرُومُ نُزُوحاً عَنْ وَطَنٍ ... مَن عَلـ ـم صِبْيَتَهُ الصَّبرا ؟
لحَظاتٌ دَقَّتْ عن وَصْفٍ ... حَمَلَتْ أَحلاميَ.. كالإِسرا
وتَسَمَّيتُ اسماً وَهْمِيّا ... ولِساناً جَرَّحَهُ الإِطرا
وكِتابُ اللّه على كَبِدٍ ... مِن هَوْلِ الكَبْتِ غَدَتْ حَرّا
جاوَزْتُ الحِقْدَ المتَنامي ... وتَرَكْتُ مَواخِيرَ السَّكْرَى
جاوَزْتُ سُجُونَ زَبانِيَةٍ ... مَنَعُوا الإحساسَ عن الإِثرا
قَتَلُوا في النَّفْسِ أَمانِيها ... مَسَخُوها مَسْخاً لا يَبرْا
رُعْبٌ يمَتَصُّ مَواجِيدي ... ويُشِيخُ الباءَةَ والفِكرا
أَطماحي كادَتْ تَقْتُلُني ... فحَفَرْتُ لأَطماحِي قَبرا
ودَفَنْتُ بِطاقَةَ إمكاني ... وشَهَرْتُ بِطاقَتِيَ الأُخرى
آمَنْتُ بأَنّيَ مَوْهُوبٌ ... سَلَبُوهُ صِناعَتَهُ الكُبرى
قَدَمِي تَتحَدَّى مَرْتَبَتي ... والعَزْمُ يُغالِبُ مُضْطرّا
وأُداري نفسي عن نفسي ... أَتَقَوْقَعُ عَمْداً لا عُذْرا
كانتْ ساعاتي تسبغني ... فأَشِيدُ سَوابِغَها جِسرا

كانتْ أوقاتي تـ ـمنَحُني ... وَهَجاً تَرْفَضٌّ له العَذرا

وخليجُ الشَّوقِ يُسامرني ... والبَدْرُ يُعاقِرُني خمرا

ومَدائِنُ حُبي تَصْهَرُني ... فأَصُوغُ الكَونَ لها شِعرا

عجباً.. قد صارت –يا لهَفِي– ... أحلى الساعاتِ لنا ذكرى



استهلال..

ليس من السهلِ اتخاذُ قرارٍ بالهروبِ من المألوف.. فكيف بالخروج عن الوطن ؟ وليس أيضاً من السَّهلِ استغفالُ القوانين وتحدِّيها.. إلا بسيفٍ ذي حَدَّينِ..

إنه أمرٌ يجلبُ التدميرَ أنْ تَلْهَثَ تحتَ سِتارِ الظلام بقدميكَ طوعاً مع عنصرٍ غريبٍ.. عيونٌ تكاد تخرجُ من محجَرَيها لشِدَّةِ ما حَدَّقَتْ في الظلام.. تطغى مساحةٌ سوداءُ على بياضِها فتكاد لا ترى إلا سواداً حالكاً..

دخانٌ كثيفٌ يغمرُ وجهاً لم تَبْقَ عليه آثارُ إنسانٍ.. إنما هو قطعةٌ بلاستيكٍ مَرِنٍ على هيكلٍ عظميٍّ..

كَفٌّ يُشْبِهُ جِلدَ ضَبٍّ عجوزٍ يخَالُ إليك وأنت تمدُّه بمبلغ المال.. ورَنّاتُ ضَحِكٍ جاقة.. وكأنها صَدَرَتْ عن تجويفٍ جافٍّ لم يُبَلّله الرِّيقُ مدىً من الزمن..



البداية..

حَدَّقَ في وجهي مرات ومرات.. وهو يَقْبَعُ على كيسِ طعامٍ أُسْنِدَ في ركنٍ من أركان الحانوت ، ثم طَأْطَأَ رأسَه يُفَكِّر .

- سَلِم للرجلِ المبلغَ..

هذا ما قاله لي الوسيطُ الذي رَتَّبَ لنا اللقاء.. وأخرجتُ المبلغ من تحت الحزام ، ودفعتُه له دفعةً واحدةً.. قرأ ملامحي قراءةَ متفرِّسٍ متمرِّسٍ.. ثم قال:

- أمتأكدٌ أنت من المبلغ ؟؟؟

- نعم.. متأكد.

دَسَّه في جيبٍ يَتَّسِعُ بمقدارِ اتِّساعِ نَظَراتِه.. وربَّتَ عليه بكفِّه ليتأكدَ من استقراره

في غَيابَةِ الجُبِّ.. نَفَضَ مَقْعَدَتَه واستوى قائماً وأشار لي أن أتبعَه بسرعة.. وهمس في أُذُنِ وسيطِه.. أن أكون حَذِراً.. وأن أحرصَ على وجود مسافة بيني وبينه خلال ملاحقتي لِسَيرِه.. وعلـمني أين أتجه.. وأين أقف.. و.. و.. ولـمحْتُ الرجلَ قد جاوز الباب فسِرتُ خلفَه ونبضاتُ قلبي ترتفع.. ورِئَتايَ أشعرُ أنهما صارتا أكبرَ من معتادهما..

أيُّ مغامرةٍ هذه ؟ وأيُّ مصيرٍ أنا أتَّجِهُ إليه ؟

لقد تركتُ أخي هناك بجوار المسجد.. قلتُ له : انتظرني ربعَ الساعة إلى نصفِها.. إذا لـم أَعُدْ إليك فاجزم بأنني قد غادرت المدينة الصاخبة..

- وخذ.. هذه ساعتي.. فلن أحتاج إليها..

فالذين يرحلون بمثل هذه الصورة لا يحتاجون إلى عقارب الساعة.. وأسأل اللّه أن لا يكون آخر العهد بيننا .

طال وقوفي بجانب الدَّرْبِ.. وطال صمتي وتأمُّلي.. وبدأ الشَّكُّ يتسرَّب إلى قلبي..

أين الشخصُ الذي أوصلني إلى هنا ؟ ذهب ولـم يَعُدْ ؟

لا شكَّ أنها خيانة.. خديعةٌ للاستيلاء على المبلغ..

لا.. لا.. إن الوسيطَ رجلٌ أمينٌ فيما يظهر.. لا أعتقدُ أنه عنصرٌ يخدع الآخرين..

الـمارةُ يتفحصون وجهي.. لابد أن أخفي هذه الحقيبة.. ربما شك أحدهم عندما يراها في يدي.. لابد أن أَجْلِسَ عليها.. فهو خيرٌ من تركها مكشوفةً للناظرين .

أُفّ.. هذه سيارات الأجرة تُرسلُ أَشعَّتَها الكاشفةَ كلـما مرَّتْ هنا أو هناك.. لعل هذا الرجلَ الواقفَ بجوار السيارة الواقفةِ يَرْقُبـنـي.. لا أعلـم حَقّاً : هل سأسافرُ الليلة أم سأُودَعُ في غَياهِبِ السِّجن ؟

لَحظاتٌ رهيبةٌ تـمرُّ بالنَّفْسِ القَلِقَة ، وأمواجٌ من الخواطرِ تَعْبَثُ بالقلب والعقل والـمزاج.. وصلتْ سيارة « لاندروفر » قديمة الهيكل ووقفت قريباً مني.. أَخَذْتُ أَتَعَرَّفُ على السائق.. فإذا هو صاحب المال.. أشار إلي بالنهوض من مكاني والركوب

في السيارة.. رأيتُ في السيارةِ شخصين قد احتَلاّ المقدمةَ ولـم يَعُدْ لي فيها من أَمَل.. حملتُ حقيبتي مُستوفِزاً وتَسَوَّرْتُ جرائدَ [1] السيارة مسرعاً وكأني أَوَدُّ إخفاءَ نفسي عن نفسي.. وتحركتِ السيارةُ قبل أن أتعرف على مكاني فيها..

سطحُ السيارة تـملؤُه أكياسٌ مرصوفةٌ من السمك المجفف.. « الوَزَف » .. ولرائحتِها الكريهةِ أَثَرٌ نَفّاذٌ يُزْكِمُ الأنفَ ويُحْرِجُ التَّنَفُّس..

وأشار إليّ مساعدُ السائق أن أقعدَ على الأكياس السَّمَكِيَّة التي رائحتها تجلِبُ لي الصداع.. ولكنه حظّي ! فالـمرءُ أحياناً لا يملك اختيار مكانه بقَدْرِ ما يكون مشغولاً بأبعاد الاختيارات التي يعيشها.. ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

✸✸✸

الانطلاق..

انطلقتْ سيارةُ « اللاندروفر » تنهبُ الطريق المتعرج نهباً ولكنها ليستِ الطريقَ المعتادة.. إنها طريقٌ قديمةٌ اتَّخَذَها أولئك لرحلاتهم الخطيرة.. ومغامراتهم المثيرة.. طريقٌ تخترقُ الصحراء رغمَ وجود العمران.. تستَجْلِبُ للنَّفْسِ منذ اللحظاتِ الأولى حقيقةَ الانقطاع عن القوانينِ ورموزِها..

وأشعلَ السائقُ سيجارةً.. ثـم سَرَتِ العدوى للجميع ما عَدايَ.. فأنا لا أُدَخِّنْ..

– أُوهْ.. موقفٌ يجعلني أَشْعُرُ بالزُّهُوِّ ! أنا لا أدخن !!

ولكنْ ما هو المردود من هذا الزُّهُوِّ في أمرٍ كهذا في مثل هذا الظَّرْفِ الدقيق ؟ ربما لو دَخَّنْتُ لكنتُ أكثرَ انسجاماً مع سحائب الدخان ؟! فقد تُجْمَعُ القلوبُ في مجتـمعٍ كهذا غَمَرَهُ دخانٌ وفُقاعُ كأسٍ وقصفٌ ولَذَّة..

---

(١) هي حوض السيارة ذي الأعمدة الحديدية .

وفعلاً انسجمَ الجميعُ في حديث السفر.. وأنا قابعٌ أُنْصِتُ للحوار وأتعلم ما يمكن أن أتعلمه من هذا الحوار العجيب..

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ولهَثَ الشابّانِ اللذانِ بجواره يسألانه أسئلةً متعددةً.. وهو يُجيبُ ويُراوِغُ.. ويخلِطُ بين الحديث ودُخانِ السجائر.. ويتَلَفَّتُ بين الحين والآخر هنا وهناك..

ودلفتْ عجلاتُ السيارة إلى الصحراء الواسعة ، ويبدو ذلك واضحاً من خلال الأشعة الكاشفة للسيارة ، فالطريقُ أمامَنا لا نهايةَ له والسرعةُ تفوق المعتاد..

ودُرنا دَوراتٍ واسعةً في عمقِ الصحراء مطارِدينَ أَثَرَ السياراتِ التي أخذ ترابُ الصحراء يخُفيها.. ويرتَدُّ البصرُ حَسِيراً إذ لا ترى في رحابِ الأُفُقِ غيرَ الظلامِ وبصيصِ النجوم.. وترى خلفَنا أضواءَ المدُن التي غادرناها.. أتخَيَّلُ في بعضِ اللحظاتِ أَنَّ السُّرُجَ تتحرَّك نحونا.. إنَّ مِن بينِها إشارات تتبادلُها دورياتُ الشرطة للانقضاضِ والتطويق.. يتفاقَمُ هذا الاعتقادُ حتى يدفعُني أَنْ أَفُوهَ بمشاعري لهم.. ثم أصمت..

لا.. لن أتكلم.. سيعتقدونني جَباناً أخشى الموت..

أليس الموتُ قَدَراً على كلِّ بَشَر ؟ أليس قد ماتَ أناسٌ كثيرونَ ؟..

أليس قد ماتتْ زوجتي يومَ قَدَّرَ اللّه لها الموت ؟ لم يُغْنِ عنها أحدٌ بشيء..

إذن فلربما كان هذا قدرنا ؟! لـ ـماذا الخوف ؟

وقطعَ شَرِيطَ حَواسّي حديثُ المرافق للسائق ، والذي كان يقبع على متن السيارة من أعلى وينادي :

- **أدخلْ بنا إلى المعزوب[1]!! عَرِّجْ بنا على البيت..**

ودارت السيارة نصف دورة أدخلتنا بين كُثُب متناثرة يظهر بينها كوخٌ صغيرٌ تنتشر حوله الأغنام والأبقار وكلبٌ لا يَكُفُّ عن النُّباح.. وكأنه أدرك أن في السيارة غرباء..وتوقفت السيارة.. وقفز المساعد إلى الأرض واختفى خلف الكوخ.. ثـ ـم نزل السائق وفتح لنا بعض أكياسٍ من اللبن المعلب لنشرب.. سلـ ـمني كيساً.. وسلـ ـم رفاقي كيساً آخر.. ثـ ـم ابتلع وحدَه كيساً.. وجاءنا طفلٌ صغيرٌ بإناءٍ فيه ماء.. وشربنا منه حتى ارتوينا.. والطفل بين الحين والآخر يتأملُ فينا ويتفرَّس ثـ ـم يَفْرُكُ عينيه.. والكلبُ لا يَكُفُّ عن النباح..

واستُؤْنِفَت الرحلةُ وصوت الكلب يلاحقنا عبر الصحراء.. ويَبُثُّ في نفسي شؤماً ورؤيةً عَتـ ـماء.. لـ ـمحتُ سيارةً أمامنا تسيرُ ببطءٍ ويظهرُ ضوؤُها الخلفي أكثرَ احمراراً.. فشعرتُ بالخوف حيث ذهب بي الظنُّ كلَّ مذهب.. إلا أن السائق بادرنا قائلاً :

- **تلاحظون السيارةَ التي أمامكم ! إنها تابعةٌ لنا.. ستسير أمامنا على مسافة ، فإذا صادف سائقُها أيَّ أمرٍ مريبٍ سيُصدر إشارةً لي.. وسأطفئ الأنوار لتقفزوا أنتم إلى الأرض والاختفاء..**

- **ما هي إشارتُكم حتى نتعرف عليها .. فقد لا تكون مُنْتَبِهاً أنت عندما يصدر صاحبك الإشارة ؟**

- **سيدوس على الفرامل.. وسيسطع نورُ السيارةِ الخلفيُّ مدةً طويلةً ولن يتحرك..**

---

(١) المعزوب في اللغة الدارجة هو الكَفر أو القرية الصغيرة .

ثم صمتَ قليلاً.. وقال :

- **لاحظوا معي السيارة الأمامية.. أنتم لا تخافون.. هذه مهنتُنا.. لقمةُ عيشنا..**

واجترَّ نفَساً طويلاً من سيجارته المتآكلة حتى بدا لي تحت ضوءِ السيجارة الخافتْ تجويفُ خَدَّيْهِ كالبئر.. ثم أَرْسَلَ دُخاناً كثيفاً غمرَ مقدمة السيارة.. وسَعَلَ سعالاً حادّاً ويداه ترتجفان على المقْوَد.. وقال مخاطباً رفيقه :

- **تسلَّقِ السيارة.. لاحظِ الطريقَ ولاحظِ السيارةَ الأماميةَ .**

ثم صمت..



نحو البحر الأحمر..

وجومٌ رهيبٌ تختلط فيه رائحةُ السمكِ المجففِ مع روائح العرق ودخان السجائر والبترولِ وغبارِ الطريق.. بينما صوتُ السيارة يَعْزِفُ لحناً جنائزياً رهيباً.. وكأنه فُلْكٌ يسير بنا إلى الآخرة..

وغيَّرَ السائق اتجاه السيارة نحو البحر الأحمر..

يا للغرابة !! إنها طريقٌ متعرجةٌ.. كنا نغوصُ في عُمق الصحراءِ حتى ظَنَنتُ أني لن أرى بحراً في هذه الرحلة.. وها نحن في طريقنا إلى البحر.. أين سنتَّجِه ؟ وأيُّ طريقٍ هذه؟

أشاهد خلفي مدينةَ « البريقة » ظهرتْ من جديد.. وأضواؤُها تكاد تختفي رويداً رويداً.. وها هي أشعةُ معسكراتِ الجيش في « صلاح الدين » تبدو من بعيد.. وتتوارد على ذهني أسئلةٌ مُلِحَّة في هذا الموقف العصيب :

كيف لو رأى المراقبون سيارتَنا وهي تشق الطريق الرمليَّ بصعوبة ؟؟

أما ينتبه أولئك لمثل هذه الحركة الخطيرة ؟

سأبدي لهم الدوافعَ الأساسيةَ التي جعلتني أغامر بحياتي على هذه الطريق.. **هل سيُقَدِّرُون موقفي؟**

لا أعتقد.. لو كان هناك تقديرٌ للموقف لما كنتُ على هذه الصورة.. إذن فالرحمةُ لا أَمَلَ فيها من جانبهم..

ويُذْكِي الإحساسَ بالخوف والقلق صوتُ ارتطامِ الأمواج الهادرة على ساحل البحر.. مختلطاً بصوت السائق وهو يحدثُ الشَّابَّينِ بجواره :

- **لو سُئِلْتم : « أين تريدون ؟ » ؟**

- **نُريدُ « عمران » .. نبيع هذا « الوَزَف » ..**

- **لا بأس.. أو قولوا : « نبحث عن أخٍ لنا أُخْبِرْنا أنه هناك » ..**

- **« ولماذا جِئْتم من هذه الطريق ومع هذا الرجل ؟ » ؟**

- **معروف معنا.. خرجنا نتمشى معه من « الشيخ عثمان » ..**

وبدأ الحوار يتخذ طابعاً آخر.. فأحدُ الشابين لم يقتنع بهذا المبرر وقال :

- **إن رجالَ الدوريات لن يصدقوا هذا الكلام..**

فتدخلتُ منفعلاً وقلتُ :

- أخبروهم أننا ذاهبون إلى رحلةٍ عاديةٍ على شاطئ « عمران » مع هذا.. هذه شنطتي شنطة رحلات.. وأنتم ماذا تحملون ؟ أليستْ ثياباً قليلة ؟ إذن فنحن في رحلة عادية مع صاحبنا هذا وغداً جمعة.. ونحن فَضَّلْنا قضاءها في « عمران » ..

وسكتَ الرَّكْبُ عن الحديث.. ولست أدري أكان رضىً عنهم بالفكرة أم رحلةً جديدةً في محاسبةِ الذات.. واستدعاءً للمبررات ؟

حقيبتي.. ليست حقيبةَ رَحَلاتٍ إذا دُقِّقَ في أمرِها.. فحقيبة الرحلات عادةً ما تكون محتوياتُها ما يتعلق برحلةٍ قصيرةٍ إلى عمران مثلاً.. إن في حقيبتي من الداخل بعضُ وريقات من العملة النَّقدية لشمال الوطن.. سيسألوني : كيف حصلتَ عليها؟ لماذا حملتَها .. أيُّ حاجةٍ لنقد شمال الوطن في عمران؟

أفٍّ لهذه المخاطر.. إنها **مزعجةٌ حقّاً**.. لَهِيَ أشدُّ إزعاجاً من هذا الساحل الرملي المغرق.. الساحلِ الذي تَتَرَنَّحُ فيه سيارتُنا يميناً وشمالاً بصورةٍ عنيفةٍ.. تهرب من الأمواجِ لتسقط في أحضان الرمال.. وتنتزع نفسَها من براثِن الرمال لِتَقَعَ في أخطبوط الأمواج..



المرور على الصراط ..

نصفُ ساعةٍ من الوَجَلِ والخوفِ والتَّرَقُّب على ساحل عمران .. عيونُنا مُثَبَّتَةٌ على حركة السيارة التي تسبقُنا.. كما ننتظرُ ما قد يحدثُ من خلفنا لو أَعْلَنَ المراقبُ القابعُ على سطح السيارة أَنَّ هناك مَن يطلبنا.. واختفى الساحل لندخل في تلالٍ ضخمةٍ من الرمل الكثيف.. تزداد فيها قوة الحركة للسيارة عنفاً وضَراوةً لتشقَّ طريقها في صعوبةٍ بالغة.. حتى إنها لتكاد في بعض الأحيان أن تستسلم وتقف..

ذَرّاتُ الرمل المتناثرِ على جسدي تُسَبِّبُ لي قلقاً وضِيقا.. فهي تمتزج بالعرق

المتصبب من وجهي ورقبتي.. وتلتصقُ في جسمي التصاقاً يشعرني بالتَّقَزُّزِ من نفسي..

إلى أين نحن متجهون ؟ لا أصدِّق نفسي أنني سأُقْدِمُ يوما على هذه المغامرة.. إنها مغامرةٌ تعني الحياة على طريق الموت..

ذكَّرَتْني بحديثِ أبي عن الجنة والـمرور على الصراط :

« **لابدَّ من المرور على الصراط من أجل دخول الجنة.. فمَن نجا دخل الجنة.. ومن أبطأ به عمله تَكَرْدَسَ في النار** » ..

وهنا.. في هذه الصحراء.. لا حكم للعمل.. وإنما الحكمُ للحظ والتوفيق الإلهي..فمن كان له حَظٌّ وتوفيقٌ حَسَنٌ نجا.. ومن ثَقُلَ به حظُّه وسُحِبَ عنه أو منه التوفيقُ وقع في الأَسْرِ.. وخَسِرَ نفسَه وغيرَه..

ولـماذا هذه المغامرة إذن ؟ أليسَ مُقامي في بلدي خيراً لي من العيش بلا وطنٍ وبلا غايةٍ في بلاد غيري ؟ إنه صراعُ شهورٍ وشهورٍ طويلةٍ كنت أتحدى عاطفتي وأستخدمُ عقلي وأقيس المسافاتِ والأبعادَ والأثرَ والـمردود.. وأقارنُ وأُحَلِّلُ وأُفاضل.. وعَدَّلْتُ قراري بالـمغادرة مراتٍ ومراتٍ.. ليس بحثاً عن رضا رمزٍ ولا رغبةً في خدمة سلطة.. ولكنّ إدراكي مني لِذاتي وحياتي ومقامي ورسالتي.. وكل ما أدخلتُ آرائي مرحلةَ الاختبار طالتْ مرحلةُ الصراع بلا تفاضل.. وكان التدخلُ السماويّ والإيحاءُ الفطريُّ والقضاءُ المرسومُ هو المُحرِّكُ للدَّفَّةِ المضطربة في أعماق قلبي.. فكان ما كان..



الروتين.. ثم القرار..

يعتقد البعض أنَّ مسألةَ القرار لا تحتاج إلى كلِّ هذا التَّوْلِيف.. وإنما هي مرتبطةٌ بالقناعات الذاتية والعزم على الشيء والتصميم في إنفاذه.. ولكنَّ شَرْعِيَ الذاتيَّ لا يَأْلَفُ اتِّخَاذَ القرار السريع.. خَشيةَ النَّدَم.. ورغبةً في استنفاذ الدافعِ الداخليِّ المجبولِ على إمضاء المقدور في عِلـم اللّه.

ولذلك.. فقد سلكتُ طريق « الروتين الإداري » كما يُسمى.. وتدرَّجتُ في مطلبي من مسؤولٍ إلى مسؤول.. من قاعدة المسؤولية الهيكلية في السلطة حتى قمَّتِها.. ومن قِمَّتِها حتى قاعدتِها.. وكانت هناك في الهيكل المتباين حلقةٌ مفقودةٌ فَصَلَتْ بين حلقاتٍ أخرى فتركتْها غيرَ متكاملةٍ ولا متكافئة..

لـمسْتُ فيهم سُوءَ الفهم لكلِّ مَن يَرِدُ على الأبواب بطلبٍ خاصٍّ أو عامٍّ..

فسادَ النَّفْسيّات لكثيرٍ من المسؤولين وفقدَ الثقة فيما بينهم..

وخَشيةَ التربُّص والتَّبِعَةِ في كل حركةٍ مشروعةٍ أو غير مشروعة..

حيث تحوَّلت الشرعيةُ إلى لَونَينِ من التصرفات :

صُدفةٌ من الصدف التي يلقاها المواطن خلالَ مرحلةٍ من مراحل الرضا والفرح والسرور لدى رمزٍ من رموز السلطة فيتحقق له منها ما لا يتحقق في أعوامٍ لغيره..

أو **معرفةٌ** قريبةٌ أو بعيدةٌ تطوي مسافة الخوف والقلق الذي يخشاه الرمزُ من موافقته أو رفضه لأمر من الأمور.

لقد غادرني أبنائي الأربعة منذ عامٍ كامل.. وأعتقد أنه كان بإمكاني لو كنتُ أُخَطِّطُ للّهروب وحدَه أَنْ أَهْرُبَ عَشِيَّةَ سَفَرِهِم.. ولكنْ كان في نفسي غيرُ ذلك.. فأنا طالبٌ في مرحلة الجامعة بالانتساب.. ومدرسٌ لـمادَّتَي الدينِ والأدب في المرحلة الثانوية.. وأمامي تَنْتَصِبُ مَهَمّاتٌ كبيرةٌ وواجباتٌ حملتُها على عاتقي لخدمة ديني

ووطني.. ولـ ـم يَدُرْ بخَلَدي آنذاك أَنْ أَتخَّذَ قراراً مفاجئاً كهذا.. ومَهَّدْتُ لطلبي مع جهاتٍ مسؤولةٍ في التربية والتعليم ومع غيرها من الجهات المعْنِيَّة بمثل هذا الأمر..

وفي بعض جيوب هذه الجهات كنتُ أَشُمُّ رائحةَ العَفَنِ الإداريِّ المريض.. والعُقْدَةِ السُّلْطَوِيَّةِ الفِرعَوْنِيَّة ، حيث كانوا يجابهونني بالرفض قبلَ أَنْ أَتحدَّثَ فيما أُريد ، وكانوا أحياناً بمنطقٍ أكبرَ من أحجامهم .

قال لي أحدهم : **تلك حدودُ الأنظمة ، ويتحتم عليك الالتزام بها كموظفٍ لدى الدولة، ومُثَقَّفٍ يُلِم بأبعاد القوانين قبلَ غيرك .**

أُفٍّ !! ليتني كنتُ أُمِّيّاً حتى أركبَ القوانين على أساسٍ من الجهل المصطنع.. وحتى لا أسمع هذه العبارات التي تحمل الباطلَ في مضمونٍ من الحقِّ.. بلسانٍ استـ ـمرأَتِ القولَ المريض .

وحتى رجلُ الهجرةِ والجوازاتِ الأولُ في دائرة المسؤوليات المعنية بالأمر قال لي ساخراً :

تُريد أن تسافر ؟!

لا داعي لذلك.. القوانين **لا تسمح** لك..

بعد عودةِ أطفالك إلى وطنهم يمكن لك أن تسافر..

تـ ـمزُّقٌ داخليٌّ في ذاتي يُحْدِثُهُ هذا الحِوارُ الباروديُّ البارد.. فأنا لو كنتُ مقتنعاً بهذا التوجيه القانوني لجلستُ في منزلي.. ولن أَطْرُقَ باباً من أبواب الحُواةِ المتعجرفين .

إِنَّ لواعج الأبِ نحو أبنائه تجعله ينسى كلَّ شيء في الحياة.. ثـ ـم إِنَّ هذه القوانين التي يتحدثون عنها ويُطالبون أمثالي من العامة باحترامها والالتزام بها - مهما كانت الظروف ومهما كانت الأسباب - هي لعبةٌ من الخطوط السوداء على محيطٍ من الورق المرصوص بعنايةٍ ، يتجاوزُها الرمزُ المسؤولُ ذاتُه عندما يكون المعادِلُ القادِمُ ممَّن يحكُمون بالقوانين أو تحكم لهم القوانين.. وحيناً فيما هو أَبْسَطُ من ذلك..

وأحياناً فيما هو أَبْشَعُ وأشنعُ من ذلك: علاقةٌ خاصةٌ مع لَذَّةٍ وكأسٍ.. ورُزْمَةٌ من المال.. عندها يمكنك أَنْ تُخَدِّرَ كثيراً من الرموز المغمورة .

إن المواطن الصالح في المجتمع الصالح هو من يؤدي واجباتِه نحو كافةِ دوائر المسؤوليات المكلَّف بها.. أن يبدأ بنفسه وأسرته ليصلحها ، ثم ينتقل الإصلاح بطبيعة النفس الصالحة إلى دوائر العمل والمرافق الإنتاجية والخدماتية، وإلى المجتمع الكبير ، سواءٌ عَلِم المسؤولون ذلك أو لم يعلموا ، وسواءٌ كُرِّمَ المواطنُ الصالحُ في مجتمعه أو لم يُكَرَّم..

إنَّ هذه الرؤيةَ تكاد تكون معدومةً في هذه الدوائر الممقوتة.. إنني أعلم من أنا.. وأعلم ما صَنَعْتُهُ لِذاتي ولمجتمعي ولديني وعقيدتي ، وأعتَزُّ حيث إنني أعلم – واللّه أعلم – لم تُسَجَّلْ لي هَفْوَةٌ يرصدُها أولئك خلال كفاحي العلمي والعملي ، بقَدْرِ ما كنتُ أُؤَدِّي ما عليَّ من مسؤولياتٍ ليلَ نهار . وزيادةً على ذلك فقد صَمَّمْتُ أَنْ أرقى مدارج المعرفة رغبةً في إسكات صراخ المتحذلقين في عصرنا المهِين .

إذن.. فما لِهؤلاءِ القوم لا يقدرون ؟

أَبعْتُ نفسي وعَقْلِي ومجهوداتي على حَفْنَةٍ من الأغبياءِ الَّذين لا يُقَدِّرُون مسؤولِيّاتهم ؟

نعم.. لقد استقرَّ هذا **الاعتقاد** في نفسي منذ أشبعوني كلاماً ومناقشةً وسَفْسَطَةً وجدلاً..

عليَّ أن أتحملَ مسؤولياتي وحدي..

وأن أتَّخِذَ قراراً أنتصرُ به لمستوايَ..

لإدراكاتي..

لظروفي الملحة..

***

آخر مقابلة..

وركبتُ رأسي مع آخرِ مقابلة مع تلك الرموز.. اختلفتْ لهجتي عن سابقتها مع أولئك المعْتَلِينَ على كراسي التَّصرُّف المطلق.. وبدأتُ مرةً أخرى من القِمَّة .

قال لي رجل الدولة الأول :

- أينَ تريد ؟

- العربية السعودية .

- لماذا ؟

- أبي وأمي وأولادي هناك ، وربما تزوجتُ هناك ، وسأعود إن شاء الله.

- بلدُك خيرٌ لك.. لا تسافر .

- أنا أعلم ؛ لكنَّ حالَ الظروف لها حكمٌ آخر .

- هاتِ لي رسالةً من إدارتك التربويةِ بالموافقة .

- قد لا يُعْطُوني رسالةً كهذه !

- فماذا تريدني أنْ أفْعَلَ لك ؟

- لا شيء .. شكراً .

وانتهت المقابلة ، وخرجتُ **منكسرَ** الإحساس والشعور ، **مهزومَ** العواطف والإرادة، ولم أنظر إلى أحدٍ في طريقي من دار الرئاسة حتى موقع السيارات حيث تركتُ دراجتي هناك .

إني أستحقُّ أكثر من هذا.. فربما كنتُ متفائلاً بشخصيةٍ دونَ شخصيةٍ.. فاتَّضَحَ لي الآنَ هيمنةُ القوانين.. وأنَّ الذين يُسمح لهم بتجاوزها ليسوا من طينتي .

لقد دُرْتُ بين أبواب الشُّخُوص المتربعة على الكراسي طالباً أو مستفسراً أو منتظراً.. وخرجتُ بلا شيءٍ غيرِ الحسرةِ والألم ، وفوائد تُعَلم المؤمنَ أحوالَ الإنسانِ وأهوالَه .

سألتُهم : **هل تريدونَ ضَمانةً ماليةً أو بَشَرِيَّةً ؟**

لا.. لا يريدون مني غير بقائي في بلدي.. أنا لم أكن أتصوَّرُ أَهَمِّيَّتي من بين الأسراب المغادرة كلَّ يومٍ تحت سمعِ وبصرِ المسؤولين إلى هذه الدرجة ! أهُمْ يحبونني بجوارهم حتى إلى درجةِ حرماني من زيارةٍ مشروعةٍ لأهلي وأبنائي ؟! للاطمئنان على حاضرهم ومستقبلهم ؟! وحاضِرُهم ومستَقبلُهم جزءٌ من حاضري ومستقبلي.. ومردودُ ذلك بلا شكٍّ يصل إلى بلدي وأمتي من روافده المألوفة .

المسألة.. كلُّ المسألة.. عَبَثٌ بالعقول.. وفوضى في تقدير المسؤوليات.. وإمضاءٌ رُوتينيٌّ للأفراد الذين لا يُسنِدُهم أحدٌ في مطالبهم العادلة.. خاصةً أو عامةً .

أيُّ إدراك لهم بحالتي وظروفي خلال حديثي معهم ؟!

إنهم في حالاتٍ عديدةٍ يتحدثون بتقريرِ مصير الأفراد ومصيرِ طموحهم وأسفارهم وإقامتهم تحتَ تأثيرِ نَزَوات **الروتينِ الإداريِّ المطّاط**.. إنَّ كثيراً منهم محتاجونَ إلى من يُشَخِّصُ لهم **أمراضَهم الذاتية**.. التي تظهر في أخلاقهم ومعاملاتهم مع العامة.. إنهم يصبُّونها رفضاً حاسماً.. وادِّعاءً بحرمةِ اللوائح والقوانين .

أنا أرى حالي وذاتي أكبرَ من قانونٍ كهذا.. لقد حَذَّرني كثيرٌ من المواطنين الذين لم يَرْضَعُوا الاحترامَ للقوانين الوضعيَّة كما رضعناها في مدارسهم.. أخبروني بأن العقلَ الإنسانيَّ العادلَ المقيدَ بأدبٍ – كأدب الدين الذي عِشناهُ ودرسناه من الكتب الصفراء – هو القانونُ الأبديُّ الحاكم.. ووجدتُ هذا القولَ الصادقَ موافقاً لعين الحقيقة التي كنتُ أبحثها..

وكان القرار..

✸✸✸

السباق..

انتصبتُ من الحفرةِ التي سقطتُ بين رمالها خلالَ تفكيري الآنِف.. وفَرَكْتُ عَينيَّ.. وأدركتُ أني الآن على بعدِ أميالٍ من تلك الدوائر بعد أنْ غادرتُها إلى أجلٍ غيرِ مسمَّى.. وحَدَّقْتُ في اتِّساعِ الأُفُقِ.. ولمحتُ شعاعاً يتراقصُ خلف الكثبان.. انزعجتُ من الداخل.. ورفعتُ رأسي إلى الدليل الجاثم على سطح السيارة :

- هِيهْ.. اُنْظُرْ خلفَك.. أما تشاهدُ الضوءَ القادم إلينا ؟

وكأنه عَرَفَ ما أقصده وأُشير إليه.. فحَدَّق نحو الضوء القادم.. ونادى السائق :

- هناك سيارةٌ قادمةٌ خلفنا.. ما رأيك ؟

- هل هي قريبةٌ أم بعيدةٌ ؟

- لا زالت بعيدةً ؛ ولكنها ستلحق بنا .

وضَحِكَ السائقُ ساخراً ، وقال بزُهُوٍّ :

- تَلْحَق؟! سأُلَقِّنُهُمْ درساً في السباق لن يَنْسَوْهُ..

ولكنيّ كنتُ في شكٍّ من هذا التحدي المصطنع.. فسيارته ((اللاندروفر)) قديمةُ الهيكل والصناعة.. وها هي تُعاني عَجْزاً في مصارعة الرمال.. فكيف لو دخلتْ مرحلةَ سباقٍ مع سياراتٍ حكوميةٍ قوية ؟

ولكن السائق فعلاً رفع درجة السرعة بحيث شعرتُ بالألم من كثرة الحركة على أكياسِ السَّمك المجفَّف.. وبَدَرَتْ لي فكرةٌ ، فربما كان الحَدْسُ صحيحاً، وتلحق بنا سيارةُ الأمن القادمة ، ستُسَلِّطُ أشعَّتَها أولَ مرةٍ على ذاتي ، فأنا أَرْكَبُ في مؤخِّرة السيارة ، إذن لابد أن أختفيَ بعضَ الشيء ، ونسيتُ أنها فكرةٌ غبيةٌ تُشبه غباءَ النعامة عندما تَدْفِنُ رأسَها في التراب دون باقي جسدِها.. فتحتُ أزرار القميصِ حتى انسدلَ على جانبي الظهر.. وتمدَّدتُ بين كيسينِ من أكياس السمكِ على صفة النائم،

ووضعتُ يديَّ تحت رأسي.. وأخذتُ في استجواب نَفْسِي ، ونسيتُ روائح السمك الكريهة ، حيث طغى الموقفُ على كلِّ شيء .

✸✸✸

الاطمئنان المغلف بالخوف..

جوٌّ من الاطمئنان المغلَّفِ بالخوف والقلق غَمَرَنا جميعاً عندما استطاعتْ سيارتُنا الابتعادَ عن السيارة القادمة.. فنحن لـ ـم نعد نشاهد شعاعها الساطع.. ودارتْ بنا السيارة دورةً قصيرةً.. وظهرتْ لنا سياراتُ نقلٍ كبيرةٍ تقف على جانبي الطريق للتبريد والراحة.. فكان الجوُّ أكثر اطمئناناً في النفوس.. حيث إنها ستكون عاملاً مساعداً في التـ ـمويه.. وجاوَزْنا السياراتِ الواقفةَ على أشدّ من السرعة المعتادة إلى الكثبان الرملية الجبارة قبل أن يلحق بنا أحد .

وبينما سيارتُنا تُصارِعُ الكثبانَ الرملية العاتِيَة سَطَعَ خَلْفَنا ضوءٌ قويٌّ ومفاجئٌ لـ ـم نكن نتوقعه.. وارتَسَمَتِ الأشعةُ القادمةُ على هيكل سيارتنا.. فدَبَّ الخوفُ في الركاب.. وانزعج السائقُ انزعاجاً ظاهراً.. وأوقفَ السيارة وقفاً اضطرارياً مفاجئاً بعد أَنْ أطفأَ الأنوار.. وقَفَزْنا بإشارةٍ خاصةٍ إلى الشجيراتِ المنتشرةِ في كلِّ مكان..

لقد كان الموقفُ يُنذر بالخطر.. والرِّيقُ يكادُ أَنْ يَقِفَ في حَلْقِي.. ولـ ـم تَكَدِ الثَّواني القليلةُ تـ ـمضي حتى كنتُ قد اختفيتُ خَلْفَ تَلٍّ كبيرٍ من الرمال .

شاهدتُ مِن على التلِّ سائقَ سيارتِنا وصاحبَه يفتحانِ غطاءَ المحرِّك للسيارة وكأنها تعطلتْ.. واقتربتْ منهم السيارةُ القادمة.. ولكنِ اتَّضَحَ لنا سوءُ التقدير.. فالسيارة القادمة لـ ـم تكن سوى واحدةٍ من سيارات النقل التي تجاوزناها.. وأُشيرَ إلينا بالعودة إلى السيارة من جديد.. وقد عَلـ ـمنا الدليلُ أَنْ لا نبتعدَ كثيراً عن مكان السيارة عندما تقع المفاجآت .

***

السائق.. المغامر المحترف..

النجوم تَتَلألأُ الليلة.. أَهيَ فَرِحَةٌ برحيلي مِن هذه المدينة ؟ أم هو استعدادٌ بهيجٌ لرُوحٍ جديدةٍ ستنتقلُ إلى العالـم الآخرِ الليلةَ ؟ كلُّ شيءٍ جائزٌ في حالةٍ كهذه.. إنها حالةٌ لا تَرْتَكِزُ على قاعدةٍ ولا قياس.. يلعبُ الحظُّ دوراً كبيراً في النجاحِ والفشل.. لقد ارتَطَمَ رأسي أكثرَ مِن مَرَّةٍ بالعارِض الحديديِّ الذي أَسْتَنِدُ إليه ، كلـما هبطتْ بالسيارة حُفَرَةٌ أو ارتفعَ بها حجرٌ أو تجاوزتْ كثيبَ رملٍ رَطْبٍ.. والسائق كان يلومنا على التَّسَرُّعِ في الظَّنِّ السيِّءِ.. فقد أَضَعْنا بعض الوقت فيما لا طائل تحته.. ثـم أخذ يُسْبِلُ علينا من لسان متدربة عبارات الاطمئنان والتفاؤل :

- السياراتُ تنتشِرُ هنا دائماً..
- إنها طريق معتادةٌ..
- لا تجعلوا القَلَقَ يُسيطر عليكم..
- لقد **دَمَّرْتـم** أعصابي..

– إنَّ حياتَكم مرتبطةٌ بحياتِنا ، ونحن حريصون على نجاح الرحلةِ أكثر منكم..

لقد قال السائق قولاً حقّاً.. إنهم حريصون على نجاحِ الرحلة أكثرَ منا.. فبنجاحهم في هذه الرحلة ستَكَرَّرُ الرّحلات.. وستَّسِعُ « دائرة العطاء المادي » ..

وقطع الحديثَ المعسولَ مطرٌ من الأسئلة القلقة وجَّهَها الشابّانِ الرّاكبانِ بجواره :

- منذُ متى وأنتَ تـمتَهِنُ التهريب ؟

وكأنه امْتَعَضَ وقال:

- أنا لا أهرّب.. لكني نَفَّذْتُ أوامرَ ذلك الرجل الذي جاء بكم.. إنه أبٌ لي.. وعزيزٌ عليّ.. ربّاني منذُ كنتُ صغيراً .
- هل سبقَ وأنْ وَقَعْتـم في أيدي رجال الأمن ؟

- لا.. نحن نتدبر أمورنا معهم .
- متى كانت آخرُ رحلةٍ لك ؟
- قبل يومين.. وقد خرجتُ من عدن في وقت الظهر.. لا تقلقوا ولا داعي للخوف ، فالسُّلُطاتُ مشغولةٌ بنفسها، ولا أحدَ يسألُ أحدا ، ولا يسألون عن أحد .

تَناقضٌ صريحٌ في حوار القائد المغامر ؛ ولكنَّ الحياةَ لا تَلَذُّ لامْرِئٍ إلا بتَناقضاتها.. إنَّه حِوارٌ جافٌّ وعابرٌ ، لا يَسْتَنِدُ على قاعدةٍ أخلاقيةٍ ولا على أُسُسٍ موضوعية ، ولا تربط بين الأطراف أيُّ روابطَ ذاتِ معنىً اعتباريٍّ.. الرابط الأساسي في المسألةِ كلِّها هو المصلحة ، والـ مصلحة المادية فقط ، ولذلك فأنا صامتٌ وهم يتكلـ مون.. أنا في صمتي أُحاكِمُ ذاتي ، وأستعرض أقوال السائق المتناقضة .

يقول : « أنا لا أهرّب » ، ثـ م يقول : « نحن نتدبر أمورنا مع رجال الأمن » ، وأخيراً « خرج من عدن قبل يومين وفي حر الظهر » !! أَمَا هَذِهِ أحاديثُ مغامرٍ مُحْتِرفٍ؟

إنَّهُ أمرٌ يجلب الاطمئنان إلى حدٍّ ما.. فالرجلُ خبيرٌ بمهنته حتى لو كاد يُخْفِيها.. وفُرَصُ النجاح ضِمْناً تبدو أكثرَ ترجيحاً في ذهني الآن.. وشعاعُ السيارةِ القادمةِ لـ محَ لعيني من جديد.. وإذا بي أنزلق إلى وادٍ جديدٍ من القلق المفاجئ.. أليستْ هذه ظروفُ المغامرات !!

لو صَدَقَ الحَدْسُ مرةً أخرى عن هُوِّيَّةِ المطارَدَةِ مَن مِنّا سينال النصيب الأوفر من العذاب والتنكيل ؟؟ نحن أم السائق وصاحبه ؟؟ نحن لا لَوْمَ علينا.. وأنا شخصياً أمتلكُ شروط الاقتناع.. لاشك أنهم يُقَدِّرون المواقف.. لَرُبَّما أعذروني إذا عرفوا قضيتي من كلِّ نواحيها .

لا.. لقد تذكرتُ أنهم لا يسمحون لـ متَّهَمٍ أَنْ يتحدَّث حتى النهاية إلا بعد أن يذوقَ مرارةَ العذاب.. إنهم لا يفكِّرون في مصلحة أحد.. مصلحتُهم فوقَ كلِّ مصلحة.. إذن فنحن في حكمهم إذا قُبض علينا : « قد ساهمنا في التخريب مع سَبْقِ

العَمْدِ والترَّصُّدِ والإصرار)).. ((رَضينا أَنْ نُغادِرَ الحُدُودَ مع عصابةٍ خارجةٌ أفعالُها عن القانون)) ، إنَّ بنودَ القوانين تَنُصُّ على عقوبةٍ كبيرةٍ تُتَّخَذُ ضدَّ مُتَّهَمٍ بهذه الاتهامات.

على كل حال.. نحن الآن قد رَكِبنا وأسلمنا أنْفُسَنا للّه.. { هو الَّذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ والبَحْرِ }.. اللّهمَّ أَلْهِمْنا الاطمئنانَ والرضا بقضائك وقَدَرك.

نعم.. لقد تذكرتُ في موقفي هذا آيةً من كتاب اللّه الكريم كان أبي يكرِّرُها عند الخطر.. { وجَعَلنا مِن بينِ أيديهم سَدّاً ومِن خَلْفِهِمْ سَدّاً فأَغْشَيناهُمْ فهُم لا يُبْصِرُون } ، وأخذتُ أُكَرِّرُها دونَ انقطاع.. حتى غَرِقَتْ عجلاتُ السيارةِ في الرمل.. ولَحِقَتْ بنا السيارةُ الأخرى حتى لم يَعُدْ بينَنا وبينها سوى خُطُواتٍ معدودة.

تُرى لمن هذه السيارة اللاحقة ؟ أَغْلَبُ الظَّنِّ المرَجَّحِ أنها لرجال الأمن.. وإلا لماذا هي منذ اللحظات الأولى التي غادرنا فيها أضواء المدينة ودلفنا إلى الكثبان ظهرتْ أنوارُها خلفَنا ؟ أين كانتْ من قبل ؟ إننا سنَقْدُمُ بعد قليلٍ على أمرٍ مجهول .

سيارتُنا كانتْ تُعالج الرمال.. وكان مساعد السائق يُزيح بكلتا يديه الأتربة العائقةَ لحركة العجلات.. ثم يدفعُ السيارة مساعداً صاحبَه للإفلات من أَسْرِ العَدُوَّينِ.. الوَهَمِ والحقيقةِ..

أما **الوَهَمُ** فهو شعاعُ السيارة القادمة المجهولة.. وأما **الحقيقةُ** فهو الرمل الرَّطْبُ الذي وقعنا فيه أَسْرَى.. كانت السيارة الأخرى تَرْسُمُ طريقها على خطوطِ آثارنا في الرمال محاوِلةً اختصارَ المسافةِ للَّحاق.. إلا أن الرمال الأرضية لا تُفَرِّقُ بينَ مطارَدٍ ومطارِدٍ.. حيث كانت الجاذبية الرملية تساعد أحياناً في تَخَلُّفِ السيارة الأخرى عنا بمسافةٍ تسمح لنا بالابتعاد.. ولَعَناتُ السائقِ لِحَظِّه وللطريقِ وللسيارةِ تتلاحقُ بين الحين والآخر.. بل كان يَدُقُّ بكلتا يديه على مِقْوَدِ السيارة منفعلاً إذا استَنْفَدَتِ الرمالُ كلَّ قوةٍ من سيارته وأَسَرَتْ حركَتَها .

وقابلتْنا تلالٌ صغيرةٌ وأكواخٌ متناثرةٌ وسياراتٌ متعددةٌ تتجمع في موقعٍ رمليٍّ فسيحٍ، ودارت سيارتُنا بين تلك الأكواخ حتى صِرنا متجاوزينَ التجمعات ، واستأمن السائق وصاحبه الموقع عن خطر الفضوليين ، فأشار علينا باقتفاء أثره ، فسرنا خلفه غيرَ بعيدٍ ثم جلسنا على أرضٍ رمليةٍ جرداءَ بعيدةٍ عن الناس ، ورأينا السيارة الأخرى التي كانت تلاحقنا منذ زمن بعيد قد اتخذتْ لها موقعاً نائياً عنا ، مما زادنا اطمئناناً في نجاح الرحلة.. وتَنَفَّسْنا الصُّعَداء .

***

من ((الوزف)) .. إلى الدخان..

غَيَّرَ قائدُ الرحلةِ موقعي من السيارة ، وطلب مِنيّ أَنْ أَرْكَبَ في المقعد الأمامي ، وتلقيتُ الأمر بالارتياح ، فلعله قد عَرَفَ موقفي الصعب من هذا الوضع المرهق ، وركبتُ بجوار السائق في السيارة الأخرى ، وركب بجانبي إلى الباب شابٌّ آخرُ أقربُ الظَّنِّ عندي أنه قريبٌ أو دليلٌ للسائق ، وبمجرد أَنْ رآني الشابُّ أخذ يسألني عن ذاتي.. وأين أقصد؟ وماذا أريد؟ فشعرتُ بالانقباض حيث إني نسيتُ أسلوبَ التَّجَسُّس هذا منذ أن غادرت المدينة.. لماذا الأسئلة؟ واضْطُرِرْتُ أَنْ أُجِيبَ في حَذَرٍ وحِيطَة ، ولَكَزَني السائقُ لَكْزَةً خفيفةً عرفتُ منها ما يريد.. فلم أَزِدْ بعدها عن الصمتِ المطْبِق.

وسادَ جَوَّ السيارةِ مَوْجَةٌ من الصمت الرهيب والقلق المزعج.. بَدَّدَهُ السائقُ بإخراج سيجارته وسَلَّمها لي لأُشْعِلَ له سيجارةً..

اعتقدتُ بادئَ الأمر أنه يريدني أن أُدَخِّن.. ولكنه أشار إليّ بإشعالها.. وفي هذه اللحظة انسحبَ الشابُّ الآخرُ من مكانه ليصعد إلى أعلى السيارة جوارَ زميلٍ آخر..

فالْتَفَتُّ خلفي لأرى أن السيارة تحملُ عدداً من الأبقار والعجول مثبتةً بالحبال إلى جانب السيارة الصغيرة .

لقد عَدَدْتُ رُكّابَ السيارة – مِن غيرِ البقر طبعاً – فكُنّا أربعة.. ولكننا لم ننسجم فيما بيننا على الإطلاق.. بل انتشرتْ فيما بيننا رائحةُ شكٍّ مُدَمِّرٍ مخيفٍ.. فقابلها الجميع بالصمت المطبق..

وبدأت الخواطر.. لماذا لَكَزَني السائق عندما أتحدثُ مع الشابّ ؟ أهو يَشُكُّ في أمر صاحبه ؟ أم هو يخشى عليه منيّ ؟ شيء غريب ! فالناس يختلفون في مقاصدهم وآمالهم رغمَ وجودهم على كَفِّ قَدَرٍ واحدة .

ورأيتُ المجال قد صار أكثرَ سَعَةً في غرفةِ قِيادة السيارة.. فالرجل الشابُّ الذي كان قد صَعَدَ إلى الأعلى.. وصرتُ أكثرَ راحةً وطمأنينةً ، فوضعتُ ساعدي على نافذة السيارة وأَطْلَلَتُ على الخارجِ قليلاً.. فانتعشتْ روحي انتعاشاً عندما لَفَحَتْ وجهيَ هَبَّةُ نسيمٍ باردٍ ، ومَسَحَتْ عن قلبي آثاراً كثيفةً من الدمار والقلق .

وفوجئتُ بأنني أحملُ في يدي سيجارةً !! إنها سيجارةٌ طلبها سائق السيارة فظلّتْ في يدي.. سلمتُها له وأمرني أَنْ أشعل أخرى لي.. فاستجبتُ وأشعلتُها رغبةً مني في إغلاق باب الكلام.. ووضعتُها في يدي اليسرى حيث كنتُ متكئاً عليها من نافذة السيارة.. ثم استَجَبْتُ لتَراسُلِ حَواسِّي .



دع الأقدار تفعل ما تشاء
وطب نفسا إذا حكم القضاء

النجومُ تُرَصِّعُ أَدِيمَ السماءِ فيبدو زاهياً كلَّ الزُّهُوّ.. والظلامُ المستبدُّ على الأرجاء يُضفي على لمعانها قوةً وعنفواناً فينتشر ضوءٌ خافتٌ وانعكاسٌ لطيفٌ على صفحة الرمال الواسعة.. فيقرأُ المبْصِرُ منها سطورَ الأمل الممتزِجِ بالحَيرة.. ويَدْلُفُ منها إلى أبعادِ المسافات النَّفْسِيّة الإنسانية المتناقضة.. إنه تناقض يُشبه تناقضَ الموجودات على هذه الرُّقعة الرمليّة الفسيحة.. الإبصارُ يَصِلُ في مَداه إلى حيثُ تَبلُغ أضواءُ السيارة الكاشفة.. ثم يَرْتَدُّ حسيراً غائراً لِيَغُوصَ إلى أعماق الذات.. فتنبهر العينُ القَلْبِيَّةُ برؤيةِ عالمٍ داخليٍّ زاخرٍ بكلِّ متنافرٍ متباينٍ على هيكلٍ جسديٍّ.. جسد بشريٍّ أحاطه العقلُ بسياجٍ من الفكر والحذر والشكِّ والخوف.. والاستنفار الدائمُ لقُوّات الدَّفْعِ والجَلْبِ.. ورُوحٌ ذاتُ سُلْطَةٍ مطلقة تجوبُ سجناً مُسَيَّراً مختاراً .

لقد كان إصراري على البقاء هناك في أرجاء المدينة رغبةً يَنْبِضُ بها عالمُ الجسدِ لا عالمُ الروح.. أما الروحُ فمدينتها التحليقُ والانطلاق في الأوسعِ والأشمل.. والجسدُ يَهْوَى الظروفَ وأَحكامَها.. ويُساهِمُ في إِحكامِها .

وأما هنا – حيثُ الليلةَ أنا أَقِفُ – فقد امتزج العالمانِ: الروحُ والجسدُ.. واعتنقا في مستوى واحد.. واحتشدا على أَكَمَةِ القلبِ النابِضِ بالخوفِ والرجاء.. {لِيَقْضِيَ اللّه أَمْراً كان مَفْعُولاً}.. لم أُشاهد طولَ رحلتي هذه أثرَ الحيوان.. لَقَدِ اعْتَدْنا في أسفارنا أن نلتقيَ ببعض الحيوانات البرية: الثعلب والأرنب والفأر والثعابين و« سام أبرص ».. وفي أقل الحالات نرى حشرات البيئة تلتفُّ حول الشعاع أو تلقي بنفسها إليه.. ليس في رحلتنا هذه شيءٌ من ذلك.. يا تُرى: طريقُنا التي نسلُكها تَنْعَدِمُ فيها الحياة والحركة لكونها طريقَ مجازفةٍ وانتحار ؟ أم أن الكائناتِ الحيةَ هنا تخجلُ من الإطلال على جماعةٍ ارتكبوا مخالفةً ضد القوانين الوضعية ؟

لستُ أدري.. إن **اعتقاديَ الجازمَ** منذ أن أدركتُ أمرَ القانون والْتِواءاتِه: « أنَّ كلَّ قانونٍ وَضْعِيٍّ لا يُقَيِّدُ إلا مَن كَبَّلَ نفسَه بواضِعِيه سلباً أو إيجاباً » .. حيث إنه مَرسومٌ يُقَدِّرُ مصلحةً ويدافعُ عن مثلها.. أما القانون الشرعيُّ اللازم.. هو قانونُ التشريعُ السماوي الحاكم.. وهو القانون السليم التي تكون مخالفته مجازفةً وانتحاراً.. قانون ينظم سلوك الفرد في الجماعة.. وسلوك الجماعة في الأمة.. وسلوك الأمة في الأجيال.. قانون متكامل يربط بين أعضاء الأديان في كل زمان ومكان.. الخارجون عنه هم الجديرون بالـ محاسبة والـ محاكمة والتطويق.. وما أكثر الخارجين.. وما أبشعَ تعليلاتهم عند الحديث عن قصة الخروج عن القانون السماوي .



قرية السائق..

هاهي ذي سيارتنا قد خَفَّضَت من سرعتها.. وأرى أمامي مسافةً مغريةً من الرمال المتساوية تخترقها طريقٌ تكاد أن تـ محَى آثارُها.. وسائق السيارة يسارق النظر إلى السيارة الأخرى.. وهي تكاد أن تتوقف عن المسير بعد أن خرجت أمامنا عن الطريقِ الرئيسِ إلى صفحة الرمل المتـ موِّج .

وقفتِ السيارةُ الأخرى قريباً من تلك.. وأُمِرْنا بالترول حيث إننا تعوَّدنا الأوامرَ في هذه المرحلة كجزءٍ من قانونها الوضعيِّ المؤقَّت.. واختير لنا مكانٌ ملائمٌ نتبادلُ فيه الحديثَ الهامسَ عن المسافة المتبقية.. وكان حديثاً هامّاً وحاسماً .

يتحدث القائد باطمئنانٍ أكثرَ.. وتفاؤلٍ أكبرَ.. عن نجاح الرحلة وتجاوز الكثير من مراحلها المقلقة ، وأننا صِرنا في حالٍ قريبٍ من برِّ الأمان .

أَمَرَ قائدُ الرحلة بعودتي من السيارة التي كنتُ بها إلى موقعي الأول في سيارة السمك المجفف ، فالرحلة - كما يقول - ستُستَأْنَفُ واحتمالاتُ الخطر تَكادُ تنعدم، ونحن قادمون على قرية « القائد » موضعِ سَكَنِه ، وهذا يعني أننا سنَحُلُّ ضيوفاً عليه.

وبين لحظةٍ وأخرى والسيارة تنخفض وترتفع في الكثبان الصغيرة المبسوطة على تلك الوِهاد ، بَدَتْ لنا قريةٌ صغيرة أضواؤُها الخافتة موزعةٌ هنا وهناك، ترتفع منها أصواتُ الكلاب . ولستُ أدري لماذا أتشاءَمُ من أصواتها في رحلتي ؟ فلقد كانت هذه الأصوات أوَّلَ ما طرق سمعي في الساعة الأولى من الخروج عن الدائرة الحمراء ، وهاهي الآن مجتمعةٌ مرةً أخرى .

إنني أخشى أصواتَها المتلاحقة.. فلَرُبَّما أيقظوا الرَّصَدَ بنُباحِهم ؟! ربما أشعروا غيرَنا بوجودنا ؟! أتمنى لو سَكَتَتْ كِلابُ القرية ؛ ولكن الكلاب لن تَكُفَّ عن النُّباح حيثما كانت ، ولها شرعيةٌ نحن نجهلها ولا نَسْتمرِئُها في مَقامٍ كهذا ونحبِّذُها في غيره.. إذن **لماذا تنبح كلاب القرية ؟**

لقد أوقَفَتْنا السيارةُ على مسافةٍ بعيدة من العُمران ، حتى لا نكون هدفاً للفضوليين من أهل القرية ، واختِيرَ لنا مكانٌ ملائمٌ للترول ، وأُمِرنا أَنْ نَنْزِلَ واحداً بعدَ الآخر ، وأَنْ نَتَّجِهَ إلى أَكَمَةٍ كبيرةٍ لنختفيَ فيها فترةً من الوقت ريثما يطمئنُّ القوم عن حال المكان ومن فيه .

عاوَدَ الاطمئنانُ قلوبَنا مرةً أخرى ، وأُمِرنا بالتجمعِ على فراشٍ من الحصير فَرَشَه لنا قائدُ الرحلة البَدَوِيّ ، واسترخى بعضُنا على أطرافه من آلام الرحلة وعنائها ، وتحسَّستُ بيديّ تربةَ الموقع فصادفتنا نَدِيَّةً رَطْبَةً ، فأسلمتُ نفسي إليها راضياً مَرْضِيّاً.. كان الرجل كريماً في قريته.. تتجسد على صورته وحركته أَنَفَةُ البدويّ وعِزَّتُه وانتصارُه.. وتلك صفة البدويِّ في كل مكان.. جاء لنا بالشايِ والخبزِ

والسماء.. وأكلنا ما استطعنا أن نأكل.. ثم رأيناه قد قَدِمَ إلينا وجلس مرتخياً في وسط الجماعةِ يحدِّثُهم عن رأيه الجديد ومشروعه النهائي المفيد .

- سننام حتى الفجر .

- **ننام ؟!** وهل غادرنا بلادَنا مخاطِرِينَ بأرواحنا لِنَنام ؟!

- لا.. لا.. سنُواصل الرحلة قبل أن يَفْطَنَ إلينا أحد .

ابتسم الرجلُ ابتسامةً أظهرت صَفّاً من الأسنان الصفراء وقال :

- أوّلاً اطمَئِنُّوا.. أنتم الآن قُربَ الحدود.. لم يتبقَّ سوى مسافةٍ قصيرةٍ.. ومن الأنسب لنا أن لا نسير المسافة المتبقية في مثل هذا الوقت من الليل حيث تنشط الدَّوْرِيّات.. سننام حتى الفجر.. خُذُوا مَراقِدَكم ولا تخشَوْا شيئاً .

ترتاح النَّفْسُ أحياناً حتى لمجرَّدِ الكَذِبِ عليها من لسانٍ متفائلٍ.. وهانحن قد سَرَتْ في أرواحنا رَعْشَةُ الحياة من جديد.. ونسينا الخوف.. وارتختْ مفاصلُ الأجساد لِتَنْعَمَ بنومٍ هادئ.. وتذكرتُ أني لم أصلِّ المغربَ ولا العشاءَ.. وبَدَرَ لذهني أن إهمالهما ربما كان سبباً في عودتي إلى حيث كنتُ البارحة.. فقُمْتُ أَتَحَسَّسُ موقعَ الماء المطروح في جانبٍ منا وتوضَّأْتُ.. وكان الجوُّ يميل إلى البرودة.. ووقفتُ بعد ذلك أصلي صلاةَ مرتابٍ يسبحُ في بحرٍ من الشَّكِّ والقَلَق.. اُضْطُرِرْتُ خِلالَهَا أَنْ أُكْمِلَ الصلاةَ جالساً .

لقد كنتُ أشعرُ أنني كلما وقفتُ في صلاتي أَنَّ هناك مَن يرى قميصيَ الأبيضَ الناصعَ فيستغربُ وجودي في هذا الفراغ.. وأَتَذَكَّرُ أنَّ أحدَ الرُّكّاب قال لي في أول الرحلة : هذه ليستْ ثِيابَ مُتَجاوِزٍ للحدود.. إنها ثيابٌ نظيفةٌ ، وهي صِفَةُ سُكّان المدن.

وأكملتُ الصلاة.. وأخذتُ مَرْقَدِي بعدَ أن وضعتُ رأسي على حقيبتي الصغيرة.. وأخذتُ أَجُولُ ببصري في صفحة السماء المزيَّنة بالكواكب والنجوم.. وأتأمل هذا الوجود العجيب والإنسان الأعجب.. وطموح الأفراد والجماعات وآلامهم وآمالهم

وصراعهم للحياة والأحياء.. الحقد.. الحسد والكراهية.. دوافع الرحلة.. و وَقْعُ ذلك على المجتمع القريب إليّ ومني وحولي أهلي وأصحابي.. لا شَكَّ أنهم سيفتقدونني.. لن يجدوا بديلاً عني خصوصاً في تلك المادة التي هي سلوكي وحدي في الفراغ الكبير.. رغمَ وُجود الكوادر الكَدِرَةِ في دوائر التربية والتعليم هناك إلا أنها في مادتي شحيحةٌ ونادرة.. بل وتكاد تكون معدومةً .

وهناك في قريتي الوديعة سيتحدثون عن مغامراتي.. عن ظروفي الملحة.. لاشَكّ أن الكثير سيعذرونني.. سيعتبرون عملي هذا مسألةً إنسانيةً شريفةً تقتضيها ظروفُ حياتي.

لقد اشمَأَزَّ كثيرٌ من أصحابي وأصحابِ أبي عندما أخبرتُهم أنني لا أنوي مغادرةَ البلاد مهما كانت الظروف.. سَخِرُوا مِنيّ وأعرضوا عنيّ.. اعتبروني رجلاً غبياً لا يفكِّر في سعادة أهله وأولاده بقَدْرِ ما يُفَكِّرُ في ذاته فقط .

شيءٌ مضحكٌ!!!

***أيُّ** سعادةٍ كنتُ أفكِّرُ فيها لِذاتي ؟!*

***أكنتُ** سعيداً عندما أَقِفُ في منزلي أَكْنُسُ الأوساخَ والأتربةَ حتى أَشْعُرَ بقَصْمِ ظهري ؟!*

***أم هي** سعادتي في مطبخي الصغيرِ بينَ هَديرِ الأَرُزِّ الفائر ورائحةِ السمك المقليّ ؟!*

***أم تُراها** في غَسْلِ صُحُونِ الأكل وفناجين القهوةِ وغسلِ الملابس ونشرها؟!*

***أم هي** في وَحْدَتِي الضاربةِ على إحساسي ووُجودي سِياجاً من الألم والعذاب؟!*

الناس في تفكيرهم لا يتورَّعُون ولا يتَوَخَّوْنَ حقائق الأمور.. يحكُمُون بسطحيةٍ كما يبدو لهم.. شأنُهم في ذلك شأنُ الجهات المسؤولة عن السفر بفارقٍ يمثِّله الارتباط بين القمة والقاعدة تحت سقفِ البديهيات البشرية.. لا يُهِمُّهُم مصلحةُ أحدٍ بالمعنى

الدقيق.. ولا يُهِمُّهُم استقرارُ الأفراد ولا الجماعات.. ولا يؤمنون بأنَّ استقرارَ الفردِ هو استقرارُ الجماعة.. هو كثرة العطاء.. هو كثرة الإنتاج.. هو الإبداع بعينه..

إنَّ رُمُوزَ القِمَّةِ يُوَزِّعُون على رعاياهُمُ القَلَقَ كما هم يعيشون فيه.. يحسُدون الناس أن يتمتعوا بأمنٍ كافٍ واستقرارٍ كافٍ في الحياة.. يحقدون.. لأنهم ينطلقون من مبدأ الحقد الطَّبَقِيّ.. وحقدهم ليس طبقياً فقط.. ولكنه « حِقْدٌ طَبْعِيّ » .

لقد كلَّفني أولئك بما لا أُطيق.. مجاملةً ومراوغةً ومزايدةً.. لولا أنّي كنتُ أحرص على أجيال بلادي لكنتُ قد غادرت أرضي دون سبب من قَبلِ هذا اليوم.. أَمَا وقَدِ اجتمعَ الألم والسببُ فإنها هجرةٌ من أرضٍ ظالمٍ أهلُها ولا شَكَّ.. قال تعالى: {رَبَّنا أَخْرِجْنا مِن هذهِ القريةِ الظَّالمِ أَهْلُها واجْعَلْ لنا مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً واجْعَلْ لنا مِن لَدُنْكَ نَصيراً} .



الشاب الحصيف..

مزيجٌ من النومِ واليَقَظَة.. ومِنَ الاطمئنان والحذر.. حتى أَسْفَرَ الفجر وبَدَتْ خُيُوطُه تغشى الموجودات.. وأُعْلِنَتِ الرحلةُ من جديد.. وخَلْفَ السيارة المألوفة وَقَفَ السائقُ والدليل وشابٌّ جديدٌ لم نَرَهُ من قبل.. حدَّد القائد لنا مَهَمَّةَ الشابِّ الجديد.. وأَمَرَنا أن نُطبِّق تعليماته بدِقَّة.. وسَرَدَ لنا التفاصيل بذكاء واختصار.. أُعجِبتُ بالشابِّ النبيه منذ أوَّل لحظة.. كان في العِشرينَ تقريباً.. يمتازُ بمَيِّزاتٍ جيِّدة.. دقيقَ الملامحِ.. فارِعَ الطُّول.. يبدو الذكاءُ المفطور في عينيه الضيقتين أكبرَ من عُمُرِه وأَوْسَعَ من قُدُراته.. يتحدَّثُ قليلاً ويتلفتُ كثيراً.. يَهْمِسُ في مَقام الاطمئنان.. ويَصْمُتُ في مقام الخطر.. إشارَتُه تَسْبِقُ كلامَه .

انطلقنا في موكبنا الأخير من تلك القرية النائمة على رمال الصحراء.. وخُيوط الفجر تَرْسُمُ في الأُفُقِ ذَيلَ السِّرْحان.. وكنّا أكثرَ قَلَقاً وأَشَدَّ حذراً.. ولعله كان الأسلوبَ الحواريَّ الجديدَ الذي أدخله الشابُّ الدليل إلى نفوسنا.. رأيتُه يركبُ مُستَوفزاً على أحدِ أكياس السمك المجفف.. ويقبض على إحدى العوارِض الحديدية بكِلتا يَدَيه.. قَدَماه مُنتَصِبتانِ.. يتَلَفَّتُ في سرعةٍ واهتمام.. يقرأُ ما حوله من الموجودات والمعالم بسرعةٍ فائقة.. ويُعطي تعليماته للسائق بدقَّة وثقَة فائقة.. لقد ركبنا هذه المرةَ جميعاً على أكياسِ السمك المجَفَّف.. ولم يَرْكَبْ أحدٌ منا في مقدَّمة السيارة.. فالخُطَّة الجديدةُ تقتضي ذلك .

لقد بدأ بعض الرفاق يشمئزُّون من وضعهم الصعب على هذه الأكياس.. ويتذكرون الراحة التي اكتنَفَتْهُم خلال الرحلة الطويلة من أبواب المدينة الماخِرَة في السُّبات.. بينما كنتُ أنا أفكِّر في شيء آخر.. وهو البرزخ الأخير من رحلتنا هذه.

والْتَفَتَ الشابُّ نحوي وأشار إلى أَنْ أَتجَرَّدَ من هذه الملابس.. ووَجَّهَ حديثَه الهامِسَ إلى قائد السيارة يأمره أن يخفِّض سرعة السيارة قليلاً قليلاً.. ولما كُنّا نَمُرُّ بجوارِ أَكَمَةٍ صغيرةٍ قفز الشاب إلى الأرض قفزةً خفيفةً وأشار إلينا باللَحاقِ مُسْرِعِين.. واختفينا خَلْفَ الشُّجَيرات الصغيرة .

أنا لا أدري أين نحن الآن ؟ ولماذا نختبئُ في هذه اللحيظة ؟ ونظرتُ إلى نفسي فلم أَرَ شيئا على جسدي غيرَ الإزار وقد لبستُها بصورة تسمحُ لي بالجري عند الحاجة.. ووضعتُ كلَّ أشيائي في الحقيبة.. في يَدِيَّ نَعْلايَ وحقيبتي.. **وقلبي**.. ولمحتُ الشابَّ وقد انطلقَ كأنما هو جانٌّ أو ثُعبان.. ونحن نُراوِغُ في الطريق خلفه بين التَّعَثُّر والاستقامة.. نراهُ يجري حتى لا نَكادَ أَنْ نَراه.. ثم يختبئُ ويَتَنصَّتُ الأصواتَ وحفيف الأشجار.. ثم يُشِير إلينا باللحاق.. وكنا نَلْهَثُ خلفه لَهْثاً غريباً.. ونقطعُ وادياً امتدَّتْ فيه شُجيراتٌ متنوعةٌ تسمح بالاختفاء والتمويه..

وشاهدنا السيارةَ قد صَعَدَتْ تَلاً كبيراً بدا لنا من ضوء السيارة الكاشف أن عليه حصناً عسكرياً صغيراً.. وقفتِ السيارةُ بجوار الحصن.. بينما أَمَرَنا الدليلُ بأن نُضاعِفَ الهرولةَ في هذه اللحظة بالذات.. حتى كاد قلبي أن ينفجرَ من كثرة الهرولة.. وانحدرتِ السيارةُ من جديد نحو الوادي فأضاءتْ كلَّ شيءٍ.. صِرنا أمامها.. فأشار الدليلُ علينا بالاختفاء حتى لا تَكْشِفَنا الأضواء.. وما أَنْ حاذَتِ السيارةُ الواديَ حتى أخذنا نسيرُ خلف الدليل بخِفَّةٍ وحَذَرٍ حتى صارت السيارة محاذيةً لنا.. ولم تَقِفْ وإنما خَفَّفَ سائقُها السرعةَ ريثما نركَبُ ونَتَّخِذُ مواقِعَنا الجديدةَ على مَتْنِها.. وتم ذلك في سرعةٍ مذهلةٍ للجميع.. وانطلقتِ السيارةُ من جديد .



المرحلة الأخيرة..

لم يَعُدْ في فمي رِيقٌ ولا رطوبة.. أُقَلِّبُ لِساناً يَتَلمظُ في تجويفٍ لحمِيٍّ.. لا أجدُ غيرَ خُشونةِ التعب واللّهث.. قَدَّمَ إليّ الدليلُ قليلاً من الماء.. فشعرتُ أنه بَلْسَمُ الحياة الشافي.. وقَبَعْتُ أُنْصِتُ إلى حديثٍ هامٍّ يَدُورُ بين الدليل والسائق .

- لقد بَلَغنا المرحلةَ الأخيرةَ.. سأَقِفُ بكم على فَمِ الوادي.. هذا الشابُّ سيسير بكم مسافةً قليلةً.. اِهْتموا بتعليماتِه جيداً.. هذا الوادي هو الحَدُّ الفاصل.. وهو أَخْطَرُ المواقع التي تعترضكم.. لا تُحْدِثُوا صوتاً ولا كلاماً.. اُخْلُدُوا إلى الأرضِ بمجرَّد سماعِكم ما يَرِيب.. وانتظروا حتى تَتَلَقَّوا إشارةَ الدليل .

- صمتاً.. يكفي كلاماً..

هكذا قال الشابُّ الحصيف..

- لا مجالَ للحديث الآن.. انتبهوا للطريق .

ومَرَّتْ لَحظاتٌ عَصيبةٌ كانتْ حدَقاتُنا فيها تَتَّسِعُ وتَتَّسِعُ حتى تكادَ أَنْ تستوعِبَ كلَّ شيءٍ يَغْمُرُهُ الظلام.. نحن لا نعلم ماذا يُخَبِّئُه لنا القَدَرُ خلفَ هذه الشُّجَيرات ؟؟ كنتُ أتمنى لو وُهِبَ الإنسانُ قُوَّةً خارِقَةً كزرقاءِ اليمامةِ مثلاً حتى لو كانتْ خرافةَ الزمن القديم.. إلا أنها في مثل هذا الموقف ستكون ذاتَ جَدْوَى .

توكلنا على اللّه.. {ومَنْ يَتَوَكَّلْ على اللّه فهو حَسْبُه إنَّ اللّه بالِغُ أمرِه قد جَعَلَ اللّه لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً } .



الخروج من الدائرة الحمراء..

دارتِ السيارةُ شِبْهَ دائرةٍ صغيرةٍ في منطقةٍ زراعيةٍ تُحيطُ بها الأسوام الكبيرةُ وبقايا الأشجار.. وقفز الدليل فجأةً إلى الأرض.. وتَبِعناهُ في حركةٍ سريعةٍ وحَذِرَةٍ واختفينا معه خلف الشجيرات.. غادرت السيارة المكان.. ولم نَجِدْ فُرصةَ الوداع من صديقنا المؤقت.. حيث انطلق بنا دليلُنا سيراً على الأقدام نُهَرْوِلُ حيناً ونَسيرُ حيناً آخَرَ.. وكأنه هو قد قاسَ قُدراتِنا في المرحلة الآنفة.. يتحرَّك هنا وهناك.. ويتلَفَّتُ يميناً وشمالاً.. يتطلَّع في الظلام حتى لكأنه شاهدَ أحداً.. ويتريَّثُ في السير حتى كأنه بلغ الأمان..كنا نُحِبُّ أن نكون قريباً منه.. ولكننا لم نستطِعْ لخِفَّةِ حركته ومراوغته وسرعته المفاجِئة.. سقطتُ مَرَّتَينِ.. وأصابتني حَجَرٌ في قدمِي **وتألمتُ منها ألماً شديداً**.. ولكني بَلَعْتُ الآلامَ في غَمْرَةِ التَّوَتُّر.. لم يَعُدْ أحدٌ يفكِّر في شيءٍ غيرِ الوصول بأمان.. إننا ننتظر بين الفَينَةِ والفَينَة أن نَسْمَعَ انهمارَ طَلَقات الرَّصاص من هنا أو هناك.. يُخَيَّلُ إلينا أَنَّ حركةَ الأشجار تُخْفي دَبيبَ الدوريات المعَدَّةِ لمثلِ هذه الأحوال.

لقد قُتِلَ عددٌ من الشباب في مغامرات كهذه.. كان منهمُ اثنانِ من قريتي.. فوجئوا بطَلَقات الرصاص في أحدِ الأودية مع الدليل.. فمات مَن ماتَ.. وضاعَ مَن ضاع.. وقُبِضَ على البقية .

تَوَجُّسٌ رَهيبٌ يُصيبُ المغامِرَ بحياته.. ذِهْنُهُ يستدعي أخباراً وأحداثاً ومُفارَقاتٍ.. ويَ بْلَعُ آلاماً.. ويَقِيءُ قَلَقاً .

✸✸✸

الحدود..

هناك تَظْهَرُ على بُعْدٍ سُرُجٌ كهربائيةٌ ! يا لَلفَرْحَةِ !! إنّا منذ مغادرتنا مدينةَ عدن لـ ـم نُشاهدْ سُرُجاً كهربائية.. لعلها قريةٌ من قرى الوطن .

اعترَضَنا كثيبٌ من الرمل الصَّلْدِ الأملس.. وكان مختبراً مثيراً للضحك الممتزج بالخوف.. تجاوز الشاب هذه الأكمة الملساء بخفةٍ عجيبةٍ وتوارى عنّا خلفها.. وكان كلٌّ منا يصعد إلى قمتها ثـ ـم يعود إلى أسفلها.. ازداد قلقي من هذه العَقَبَة الغريبة.. وتقدَّمتُ بهِمَّةٍ وحملتُ نَعلايَ ثـ ـم تَشَبَّثَتْ أطرافُ يديَّ في نُتُوءاتها المتفرقة وامتطيتُ الكثيبَ الأملسَ خطوةً خطوةً.. حتى تجاوزتُ القِمَّة.. وكذلك فعل أصحابي.. وليسوا بأصحابٍ إلا مِن حيثُ الصُّحبةُ وحدَها.. أما دليلنا فقد قطع شوطاً بعيداً.. ولحقناه بجهدٍ جَهيد.. واقتربنا من القرية التي تَشعُّ منها أنوارُ الكهرباء.. وتقاربتِ الخُطَى.. وصِرنا على مَقْرُبَةٍ من ذلك الشابِّ العَجُول.. ثـ ـم استدار ووقف.. ثـ ـم قال:

ـ لقد بلغنا حدود الشَّمال.. أنتم الآن في أمانٍ.. هذه القرية شمَالية .

وتَنَفَّسْتُ الصُّعَداء.. وانزاحَ عن صدري هَمٌّ ثقيلٌ.. وكابوسٌ رهيب..

وكِدْتُ أن أعتنقَ ذلك الشابَّ النبيل.. إلا أنه قال لي :

- اِلْبَسِ الآنَ ثيابك.. فلم يَعُدْ هناك ما يخُيف غيرَ نَبْحِ الكلاب..

شيءٌ عجيبٌ !! هل عَرَفَ أنّي أتشاءمُ من أصواتها ؟!

ربما.. أو أَنّنا في الهَمِّ سواءٌ.. ولبستُ ثيابي ونحن نسير.. التَقَينا في الطريق ببعض المزارعين يركبون الحميرَ مُبَكِّرِينَ إلى حقولهم.. فكانوا يُحَيُّونَنا بهدوء وبساطة.. معتقدينَ أننا من أهلِ القرى المجاورة.. نُرِيدَ التبكير إلى سوق الجُمُعة .

وأَطَلَّتْ من بين الجبال الصغيرة قريةٌ تظهر لنا بيوتُها الصغيرة مع وضوح الصباح.. وقبل أن ندخل القرية أشار الدليل لنا بالبقاء خلف حانوتٍ صغيرٍ ريثما يبحث لنا عن دليل آخر يقطع بنا المسافة من هذه القرية إلى سوق الجمعة.. أما هو فقد انتهت مهمته هنا.. ولعلها المرة الأولى التي انزعجت فيها من لسان هذا الشاب الدَّؤُوب.. إذ هو - كما يقول - لن يستمر معنا أكثر من هذه القرية.. ولا زالت الطريقُ أمامنا غيرَ بَيِّنَةٍ ولا معروفة.. أخشى أن نَقَعَ في أيدي فئةٍ من الفئات التي تُتاجِرُ بالنفوس.. ونهربَ من سَيِّءٍ إلى أسوأَ.. فلقد سمعنا عمَّن تاه في الوصول على أيدي هؤلاء الأدِلاّء ففقد كلَّ شيءٍ قبل أن يبلغ مرحلة الأمان.. وأسفر الضوء ونحن في موقعنا المرتفع نتأملُ القرى المتناثرة على سفوح الجبال والمزارع المبعثرة خلالها..

وتزدادُ الرؤيةُ وضوحاً كلما أسفر ضوءُ الصباح على البسيطة..

فها هي الروابي الخضراءُ وأصواتُ الطيور..

ونَهِيقُ الحمير ، وخُوارُ الأبقار ، وهَدِيرُ المكائن المائية..

ورجالٌ يسعون هنا وهناك ، ونِسْوَةٌ يحمِلْنَ الحطب والماء..

ونَبْضُ حياةٍ عجيبٌ يُشْعِرُ المرءَ بقيمته كلما جاوزَ مرحلة الخوف والخطر..

وَدَّعَنا دليلنا الشابُّ بعد أن كلَّفني بكتابة كُلَيماتٍ على ورقةٍ كرتونية تؤكِّدُ وصولنا إلى القرية.. ودَسَّها في جيبه.. ثم أشار إلى ولدٍ صغير لا يجاوز السابعة عشر من عمره وقال لنا :

- هذا دليلكم إلى سوق الجمعة.. اتفقوا معه على الأجرة .

ولم يسمح لأحدٍ منا بالكلام أو المناقشة.. وإنما أدار ظهره لنا وولى عائداً في طريقه التي جاء منها .

اتَّفَقنا مع الشابِّ على أجرةٍ معيَّنةٍ كانت تُعَدُّ شيئاً كثيراً بالنسبة لما نَحْمِلُه من مال.. ولكنَّها تُعَدُّ بالمقارنة مع قيمة الأمن والاطمئنان لا تساوي شيئا.. ذهب ذلك الشابُّ بالمبلغ وأحضر حماراً واحداً.. واعتذر عن الحصول على أكثر من ذلك إلا إذا تأخرنا قليلا.. ولكنا رغبنا في الذهاب.. فلا حاجة في البقاء انتظاراً لوصول حمارٍ أو حمارين.. وكما يقال في المثل ((خيرُ البِرِّ عاجِلُه)) .

وانطلقنا بادِئَ ذِي بَدْءٍ نَسيرُ على الأقدام.. بينما امتطى دليلنا حماره وسار أمامنا.. كنتُ خلال هذه الانطلاقة المباركة مشغولاً بتأمُّلِ ما حولي من جمالٍ وجلالٍ في هذا البلد العجيب.. وما في جَنَباته من خيرٍ وفيرٍ وثَراءٍ زراعيٍّ ونشاطٍ يتراءى للعينِ واضحاً .

أهلُ القرى نَشِطُونَ كعادتِهم.. ها هم يَمُرُّون بجوارنا على الطريق الجبليِّ الزراعيِّ.. يُحَيُّون ويتأمَّلونَ الملامِحَ في فضولٍ عجيبٍ واستقراءٍ مُريب .

آبارٌ صغيرةٌ تمتَدُّ متفرقةً على طول الطريقِ الزراعي الذي سلكناه.. تَتَجَمَّعُ عليها مع إشراقةِ الصباح نِسْوَةٌ يَلْبَسْنَ اللباسَ الشماليَّ المعروف.. البنطلون النسائي الواسع والقميص الفضفاض الذي يبلغ إلى الركبة وخمار على الرأس.. وحُلِيٌّ فِضِّيَّةٌ تمتدّ على الساعدين.. وابتسامةٌ ساذَجَةٌ تُوَزَّعُ على كل الناس بلا مناسبة ولا سبب..

وركبتُ الحمار لأول مرة ! وبذلتُ جهداً كبيراً لأستقرَّ على ظهره.. إنه أمرٌ صعبٌ أن تستقر على ظهر حمار.. وخاصةً إذا كان من نوع كهذا.. فهو حمار كبير ومرتفع.. وتبدو عليه علامات الأذيَّة والتمرد.. وبين القهقهة والضحك بدأتُ أستوعب المقامَ الحَميرِيَّ وأستقرُّ على ظهره المتحرك.. واعتدلتُ بعضَ الشيء على مَتْنِه لأواصلَ تَأَمُّلي في كل شيء حولي..

هندسة البناء العجيب في هذه القرى..

مَبانٍ شامخةٌ أُقيمت على سفوح وقمم الجبال..

وفي القنوات المائية الصخرية الواسعة..

وفَنٌّ معماريٌّ ينتقل إلى الترع الصخرية والمجاري المائية..

والمدرجات الخضراء التي تمتد على طول وعرض الجبال..

جميلةٌ قرى الوطن.. وأهلُها قومٌ من الطِّيبَةِ والفطرة بمكان.. ويَصِلُون في طِيبَتِهم أحياناً إلى حَدِّ السَّذاجة.. ولم يَمْضِ من الوقت إلا القليلُ حتى نزلتُ عن الحمار لمن يُجيدُ الثَّبات على ظهره.. وقف الدليل في عرض الطريق الجبلي وقال :

- أنا لا أعرف هذا الطريق..؟؟

- **يا للمصيبة !! دليلٌ لا يعرف الطريق !!** لماذا لم تخبرنا من البداية ؟

- أنا لم أتعود الذهاب إلى سوق الجمعة من هذا الطريق.. هذا طريقٌ صعبٌ .

- لقد أخبرك الدليل أن تسير بنا في هذه الطريق لأنها أكثرُ أماناً من غيرها.. وعليك أن تستمر.. واسألْ من تلتقي به من الناس .

وجهٌ بَلِيدٌ يحمله هذا الشابّ.. ودَمٌ ثقيل.. عرفتُ ذلك فيه منذ أَنِ امتطى ظهرَ الحمار.. ونحن نسير على الأقدام منذ البداية.. ثم هو ثرثار لا يكفُّ عن الكلام .

- من أنتم ؟ كيف استطعتم الهروب ؟ مَن هو الذي ساعدكم؟..

- لقد عرفتُ هنا الشّابَّ الذي أوصلكم إلينا.. إنه من قريةِ كذا وكذا.. إنه يُهَرِّبُ البضائع.. يخافُ أن يكشفه أحدٌ..

- نحن لا نَهْرُبُ أبداً.. نحن نتعاون مع أهل الجنوب .

كرهتُ المسير معه منذ البداية.. وحَذَّرْتُ رفاقي من الاسترسال معه في الحديث.. ولكنهم مع ذلك يندفعون معه في الحديث معه إلى درجة التَّقَزُّز.. كنا نسير والناس يدلُّوننا على الطريق.. وكأنما هم قد عرفوا قصدنا وشأننا.. حقّاً إن أهل القرى متعاوِنون مع الغريب.. وبلغنا إلى قرية صغيرة بناها أصحابها على صخور ناتِئَةٍ وموقعٍ

صخريٍّ وَعِرٍ ورهيب.. وكان لابد للحمار من الصعود على هذه النتوءات المخيفة وتجاوزها.. وما أَنْ تَوَسَّطْنا مجَرى الماء في تلك القرية حتى خرج أهلها كباراً وصغاراً يتفرَّجون علينا ونحن نَثِبُ كالأرانب من صخرة إلى صخرة ومن نتوء إلى نتوء.. ودليلنا البليد راكب على ظهر دابته يكلِّفُها عناءَ القفز والصعود .

✸✸✸

الدليل الأحمق..

أُفٍّ لهذا الشابّ.. لقد رَضِيتُ أن أنزل عن الحمار بعد أن سرتُ به قليلا لكثرة غبائه وسفسطته.. الناس في القرية يُنادُون عليه أن يسير في الطريق الصحيح.. وهو يتغافل ويَتَلَكَّأُ وكأنما لم يسمعْ أحداً.. كنتُ أقول له :

- **اِسمعْ يا ولد.. الناسُ ينادونك..**

فيلتفتُ إليّ ببرودٍ ويقول :

- اتركهم.. أنا أعرفُ الطريق..

- **أَيُّ طريقٍ تَعْرِفُها ؟ وأي رُفْقَةٍ أُصيبَتْ بِك ؟!** بلاءٌ أَشَدُّ من بلاء الرحلة كلِّها ! ما هذه المصيبة ؟

والتفتَ إليَّ أَحَدُ الناس.. كان مُطِلاً علينا من داره وسألتُه عن الطريق الأقرب في هذه الغابة الصخرية.. فأشار عليّ دالاً على مواقع الخروج حتى فَهِمْتُها.. فصعدتُ إليها ولحقني أصحابي وتركنا الدليل على الحمار وحده.. وانتظرناه على قمة الصخور جوار بيت رجل كريم.. استقبلنا بحفاوةٍ وإكرامٍ ولُطْفٍ يفوق الوصف.. وقال لنا : إنه قد سلك ذات الطريق بأهله حتى بلغ إلى هذا الموقع فاختاره سَكَناً.. وإنه حَقّاً لاَختيارٌ غريبٌ وعجيبٌ.. كيف يرتاح على هذه الصخور ؟! وكيف يلعب صغاره

وأطفاله؟! ولَرُبَّ أمرٍ مُستغرَبٍ لدى على عقليةٍ بشريةٍ يكون لدى عقليةٍ أخرى هو عينَ الصواب .

قَدَّمَ لنا الرجلُ المضيافُ بعضَ الشاي والـ ـماء.. وكان سيصنع لنا فطوراً إلا أننا أَصْرَرنا على مواصلة السير.. وطلبنا منه أن يَدُلَّنا على منفذ الخروج من هذه القرية إلى سوق الجمعة.. وصل صاحب الحمار.. وجلس ليشربَ الشاي وأنا منه مُشْمَئِزٌّ كلَّ الاشمئزاز.. ثـ ـم جلس يتحدَّثُ وأنا أكادُ أتـ ـمزَّقُ من الغيظ.. ولـ ـما أشرتُ له أن أُسْرِعَ قبل أن ترتفعَ الشمس وتزدادَ الحرارة علينا ضَحِكَ مِلْءَ شِدْقَيهِ.. ولـ ـم يَزِدْ على ذلك شيئاً .

قمتُ من مكاني وأشرتُ إلى الرُّفقةِ بالـ ـمسير.. وانطلقنا صَوْبَ الطريق التي حَدَّدَها لنا الرجلُ من قبل.. وكان صعوداً إلى أعلى الجبل حتى بلغنا القمة.. فانتظرنا وانتظرنا حتى طال علينا الانتظار.. للدليل والحمار !

عَلـ ـمتُ رُفْقَتي أن يكونوا أكثرَ حذراً وتَعَقُّلاً في الحديث مع هذا الرجل الأرعن.. فالخطرُ سيَحُلُّ بنا لو عَرَفَ هذا المريضُ ضَعْفَنا وخوفنا من الطريق والناس والعسكر..ووصل الدليل بحماره يَخْطُرُ مُغَنِّياً.. وأراد أن يجلس فقمنا وألححنا في المسير.. فلـ ـم يترل من الحمار وإنما سار قبلنا وتبعناه في طريق مُوحِشٍ مُرْهِقٍ بُرَهَةً من الوقت.. ثـ ـم بَدَتْ لنا الخضرة ولطافة الحشائش والنسيم النديُّ من حقولٍ وافرةِ الخَصْبِ والنَّما.. وكنا على غاية من الإرهاق والتعب والإجهاد.. ووقف الدليل مرة أخرى حائرا.. ودائرا..

لـ ـم يعد أمامنا غيرُ جبال شاهقة ووادٍ لا نهاية له.. ووقف يفكر.. قلت له:

- اِذهَبْ إلى أولائك النسوة في عرض الطريق واستفسر لنا عن الطريق .

وخففتْ إحداهنَّ عليه العناءَ وجاءتْ بنفسها ودَلَّتْـ ـنا على طريق قصير.. صعودٌ على جبلٍ أَجْرَدَ لا أثرَ فيه للحياة.. يختلف اختلافاً جذرياً عن سابقه من الجبال

والطرق.. وكأنه شبيهٌ بدليلنا الذي اختلف حِسّاً وعقلاً وخُلُقاً عن غيره من البشر هنا.

وكلما صَعَدنا مسافةً في سَفْحِهِ زاد ابتعادُ قِمَّتِه عنا بُعْداً ملحوظاً حتى بلغ الجُهْدُ مِنّا كُلَّ مَبلَغ.. وانقطع الكلام فيما بيننا وتفرَّق الجمع حتى كان كلٌّ منا يبحث له عن طريقٍ يوصله إلى القمةِ قبل غيره.. وأشرفنا بعدَ لأْيٍ ولُغوبٍ على منظرٍ خَلاّبٍ بديع..

خُضْرَةٌ تمتَدُّ على مَدِّ العين البصرية..

تنعكس عليها أشعَّة الشمس فتُلْبِسُها حُلَّةً ذهبيةً رائعة..

وبيوتٌ منتشرةٌ على سفوح جبالٍ خضراءَ..

ودُمىً بَشَرِيَّةٌ تَدُبُّ هنا وهناك ذاهبةً وآيبة..

وفجأةً قَطَعَ تَأَمُّلي وأحلامي صوتُ الدليل الغبي :

– انظر ! انظر ! أتشاهدُ ذلك المبنى الذي على الجبل الأوسط ؟

– نعم أشاهده.. أيُّ مبنى هذا ؟

- إنه مركز للحكومة.. وسنمر تحته !

– قَبَّحَكَ اللّه من دليل ! أين أنت ذاهب بنا ؟

وأخذ يضحك مِلْءَ فيه.. ويسوقُ الحمار سوقاً عنيفاً.. لقد تأكد لي حينها أنه شابٌّ يملك من الخُبْثِ شيئاً كثيراً.. واستعذتُ باللّه منه.. أدار وجهه إلى ناحيةِ رُفْقَتي وقال :

– إننا لابد أن نساعدكم.. لأننا نعتبركم لاجئين .

وكنتُ حينها أقرأُ الآية الكريمة : { وجَعَلنا مِن بينِ أَيدِيهِمْ سَدّاً ومن خلفِهم سَدّاً فأغشيناهم فهُم لا يُبْصِرُون }.. وكانتْ طريقاً منحدرةً إلى الأسفل.. وَعِرَةَ المسْلَك.. كثيرةَ الأشواك والحجارة.. نَلْهَثُ فيها ونَشْقَى .



الدليل والحمار..

قال الدليل فجأة :

– مَن يركب الحمار ؟

وحاول بعض الرفقة الركوب دون فائدة تُذكر.. إذ لا يستطيع أحدٌ أن يستقرَّ على ظهر حمار في طريقٍ كهذه إلا لـ حمألوف.. وكان الدليل يضحك عليهم بسخرية واستهزاء.. وبلغنا السهل الواسع دون خطر أو خوف.. ومررنا تحت مركز الحكومة فلـ ـم يَفْطَنْ أحدٌ إلينا.. ونحن كأمثالنا من الناس الوافدين على هذه الطريق إلى سوق الجمعة كل أسبوع..قريةٌ تحيط بها المزارع الخضراء الغنية.. وتكثر فيها الأبقار والحمير والأغنام.. إنها منطقةٌ تجاريةٌ.. ما أكثرَ قطعان الغنم ! إنها في كل مكان تتجمع.. يسوقها أصحابها في طريقهم إلى السوق .

ودَلَفنا بين المزارع نحو السوق على دُفعتينِ.. واختلطنا ببشرٍ وعالـ ـم تجاريٍّ وصَخَبٍ.. ونداءات وحياة تُذِيبُ الخوفَ في محيط الأمن والحياة.. وقبل أن نَسْتَرِدَّ أنفاسَنا.. مرَّتْ سيارةٌ مسافرةٌ إلى تعز.. كان صاحبها ينادي :

– **تَعِزّ.. تَعِزّ.. تَعِزّ..**

فتفاءلتُ بهذا النداء المَبَشِّرِ وقلتُ لذاتي : **عِزَّةٌ أَقبلَتْ وذِلَّةٌ رَحَلَتْ..**

ورأيتُ الدليل مسرعاً إلى السيارة يستوقِفُها.. وكانت هذه المرةَ الأولى التي سُرِرْتُ فيها من دليلنا المشؤوم .



إلى تعز..

الساعة التاسعة صباحاً.. والسيارة مُتَّجِهَةٌ بنا في طريقها إلى تَعِزٍّ.. صخورُ الطريقِ الناتئةُ ومنعطفاتُه الضيقة تعرقل الانطلاق السريع للسيارة.. خَلبَني المنظر.. وشعرتُ بالارتياح يَغْمُرُ نفسي.. واستذكرتُ في هذا الموقف الحالم الجامع بين فرحتِي بالأمان والسلامة وهذا المنظرِ الطبيعي الخلاّب وصفاً للشاعر اليمني عبداللّه البردوني في كتابه « رحلةٌ في الشعر اليمني » قوله: « هذه الأرضُ التي تَشْمُخُ جبالُها حتى تَتَّكِئَ عليها النُّجومُ.. والتي تمتَدُّ سُهُولُها حتى تَتْعَبَ أشفارُ العُيونِ في أجوائها.. وهذه الأرضُ التي تُخْصِبُ وتَخْضَرُّ حتى تورق الصخور وسطوح البيوت.. والتي تَجِفُّ حتى تَعْتَصِرَ الريح لعابها.. وتحتسي الشمس ظلها.. هذه الأرض المتقلبة الأجواء.. المخضرة المكفهرة الشامخة الممتدة » انتهى .

لستُ أدري.. ويا سبحان اللّه ! تَبتهجُ أساريري وتحيا روحي ويُداخلني فرحٌ خَفِيٌّ يغمرُ طَيّاتِ الذات المحزونة الكئيبة بمجرد أن تلتقي عَيناي بمنظرٍ طبيعيٍّ أَخّاذ.. وتتحرك في جوانحي رغبةُ تعبيرٍ وكتابةِ شعرٍ ونثرٍ وتصوير.. وتتماثلُ صُوَرٌ متشابهةٌ في مخزونِ ذاكرتي تَحملني حملاً سريعاً إلى عالمٍ عجيبٍ من المقارَناتِ والمفارَقاتِ.. فأتذكَّرُ في لحظةٍ واحدةٍ أكثرَ من منظرٍ وصورة.. وزمانٍ ومكان .

شيءٌ بديعٌ ! وصُنْعٌ مُتْقَنٌ ! وخَلْقٌ لا مثالَ له ولا شبيه ! صَدَقَ الحق في تَحَدِّيه : { هذا خَلْقُ اللّه فأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِن دُونِه }.. شُجيراتُ النخيلِ والصَّفْصافِ والدّيمن والمريمر.. وأزاهير بيضاءُ وحمراءُ وزرقاءُ.. وخُضْرَةٌ تملأُ الواديَ من أنواعٍ لا تحصى من الأعشاب والخمائل والزهور .

وبين الفينة والفينة ننتقل من منعطَفٍ إلى غيره لنرى من دفع الحياة ومصنوعاتها الربانية شيئاً حسناً وبديعاً.. هناك الفلاحون على الفطرة الأولى.. الملامح والثياب والحركة والأحاسيس.. والعلاقات .

وهناك نساءٌ على المجمَّعاتِ المائية والترع الصغيرة - حِلَقاً حِلَقاً - تَراهُنَّ بين غاسلَة لثيابٍ وناقلةٍ للماء على الصفائح.. والكُلُّ في حركةٍ دائبةٍ وانشغالٍ غريب.. الكلُّ على وجوههم إشراقةُ الصدق وبساطة الإنسان الحقيقي.. لا يفكرون في غير اللحظة.. ولا يعيشون إلا لها.. لا يَشْغَلُون أنفسَهم وأرواحهم بأكثرَ ممّا هُمْ فيه.. وما هو ماثِلٌ تحت دائرتهم.. لم يصبْهُم بعدُ قَلَقُ الحضارة.. وتخليط المدنية.. وتعقيداتُ البشرية الدافعةِ للحرص على الحياة الحديثة بأنواعها .

لقد دَمَّرَتِ الحضارةُ الحديثةُ قَلْبَ الإنسانِ وحالَهُ وسُلُوكه وآماله.. وعَمَرَتِ الماديات المحيطةَ به.. جَعَلَتْهُ عبداً مأسوراً لفُقّاعاتِ كؤوسِ الواقع.. وتابعاً مجرَّداً عن القِيَم.. يُصلّي ويتجه إلى حيث البَريقُ المادِّيّ.. وأطفالُ الواقع المادي المعاصرِ هم أسرى الصناعاتِ والمخترعات والأشكال القالبية المنحوتة على مثالِ الحقيقة الوجودية.. أطفالُ التليفزيون.. وشبابُ الموسيقى والسينما والحب.. وكهولُ الجدران الزئبقية.. وعُبّادُ العَرْضِ والطَّلَب والسُّيُولَةِ النَّقْدِيّة.. وشيوخُ الفراغِ القاتل والموت البطيء والملاجئ.. ونساءُ الموضات والموديلات والانحرافات الفكرية.. جَمَعَ الزمانُ لهنَّ كلَّ وَباءٍ فكريٍّ وسلوكيٍّ..كتابةً وعرضاً ومعاناةً.. حتى صارتِ الآدابُ مَتْحَفِيَّةً والأخلاقُ نظريةً.. والمفاسد والحُرِّيّاتُ واقعيةً حتميةً.. والكلُّ يَسيرُون في وادٍ من الأوهام والأسقام والأحكام والأنغام والآثام .

ما أكثر القرى الصغيرة في هذا الطريق ! بيوتٌ بُنِيتْ على طرازٍ أَثَرِيٍّ في الغالِب.. تحتشدُ متناثرةً ومتجمعةً على سفوح الجبال والمنحدرات والمرتفعات.. ورغم كثرتنا في السيارة « التويوتا » الصغيرة المكشوفة إلا أن أحداً منا لم يتجرأ على سؤال واحد عن هذه القرى وأسمائها .

مركزُ شرطةٍ يرفرف عليه عَلَم الجمهورية العربية اليمنية.. إنها أول لحظةٍ في حياتي أشاهد علماً مرفوعاً خارج تجربتي الوجودية الأولى.. لقد كنتُ خلال حياتي الماضية لا أُشاهد إلا عَلَماً يمثل شِقّاً واحداً وتَصْطَفُّ تحته رموزٌ متباينة.. منها مَن يرغب في

التَّطَلُّع الدائب إلى خفقان الراية على الوطن بهذه الصورة المشطورة.. ومنها من يحنُّ للراية الأخرى.. ومنها من له أملٌ أكثر اتساعاً وشمولاً.. والكلُّ يُقْسِمُونَ قَسَماً ذا لحنٍ واحدٍ ونشيدٍ واحد.. وبدايةٍ ونهايةٍ واحدةٍ.. والنَّشازُ في العادة لا يُرغب فيه ولا يَطُولُ دَوامُه .

***

سوق الجمعة..

أَطَلَّ سائقُ السيارة من نافذته مخاطباً للجندي الحارس على الخشبة الفاصلة، وقال بعد السلام :

- من سوق الجمعة.. كُلُّهم أصحابنا.. معاريفنا !!

وفتح الجندي الطريق وانطلقنا إلى مسافاتٍ جديدةٍ أحلى وأجلى.. ولم تَطُلْ بنا المسافة سوى قليلٍ من الزمن حتى وصلنا إلى قرية صغيرة.. وقَفَتْ بها السيارةُ وسط زَخَمٍ بشريٍّ وحركةٍ تجاريةٍ وزراعيةٍ غريبةٍ لم نَأْلَفْها ولم نَعْرِفْها في حياتنا إطلاقاً.. كلُّ شيءٍ يتداخل في الزحام مع غيره.. حتى الكلاب والحمير.. شعرتُ بفرحةٍ عظمى تغمرني ممتزجةً برغبةٍ في البكاء أَخْفَيْتُها في أحاديثَ متصلةٍ مع رفقتي ونحن في طريقنا إلى مطعم قريب.. لقد رأيتُ حياةً حقيقيةً.. والبسطاء يبيعون ويشترون في انسجامٍ واحترام.. لا يرفعون رؤوسهم إلا ليعيدوها في بضائعهم.. مُشتَرواتِهم ومبيعاتِهم.. لم يتطلَّع أحدٌ منهم في وجوهنا ولم يسأل أحدٌ عنا ولا عن هُوِيَّتِنا.. ولا يُهِمُّهُم مَن نحن؟ وإلى أين نريد؟ أسقطوا من عقولهم مرضاً أُصيب به غيرُهم حتى فقدوا الثقةَ بينهم.. والأمن في كلٍّ مفقودٌ.. حتى بين الرجل وأهله وأبنائه.. بل وذاته!

يا للعجب ! على كثرة البشرية المكثّفة في هذه القرية لم أشهد واحداً منهم أدْرَكَ غربتي أو قلقي ، يضحكون فيما بينهم ، حتى ترى السعادة متناثرةً في الأرجاء ، لا حزنٌ ولا أحزانٌ ، ولا قلقٌ ولا إقلاق ، وجوهٌ طَرِيَّةٌ فطرية ، وأوقاتٌ متحركةٌ عملية..

دخلنا إلى المطعم في جوٍّ من الدهشة والاستغراب ، فلا شيء في الوجود يستدعي الدهشة سوى سلوك الإنسان.. والإنسانُ وحده.. وقعتْ عيني في جانب من جوانب المطعم على عدد من المصريين يظهر من ملامحهم أنهم غرباء مثلنا.. غرباءُ عن القرية وغرباءُ عن الفطرة والبساطة ، جاءوا من مجتمعاتٍ غُسِلَ الإنسانُ فيها بوَحْلِ الحضارة وتعقيداتها ، رأيتُهم يتابعون مثلنا حركةَ الزخم البشري المنسجم على فطرته.

لقد ازدَدْتُ اطمئناناً ساعةَ رأيتُ المصريين.. فقد عرفتُ أنهم من المدَرِّسين بالقرية.. وأننا الآن قد أصبحنا في عمق شمال الوطن.. وفرص الأمان قد أصبحت حقيقية « مئة في المئة » كما يقولون.. ولْنُوَدِّعْ قَلَقَ الأمس في اطمئنان اليوم .



الراهدة..

هذه مدينة « الراهدة » .. وسألتُ زميلي : « كم الساعة ؟ » فكانت الثانية عشر ظهراً.. لقد قطعنا ثلاثَ ساعاتٍ في رحلتنا من سوق الجمعة إلى هذه المدينة الجميلة.. لم نتوقف إلا في مراكز التفتيش وفي قرية صاخبة بالحركة التجارية.. الشمس قد أحرقت الجلود.. واستهلكت طاقة الأملاح المخزونة.. « الراهدة » مدينةٌ جميلةٌ بحق.. تزدحم بالأشياء من كل صنف ومرتبة.. البشر.. السيارات.. الدراجات النارية.. البقر والغنم.. وعربات الحمير.. وبضائعُ من كلِّ شكلٍ ولونٍ وحجمٍ.. محليةٍ وأجنبيةٍ..

كلُّها معروضةٌ على صعيدٍ واحدٍ في الحوانيت.. وعلى أرصفة الشوارع..وعلى مؤخِّرة السيارات.. وعلى أبواب المساجد والمنازل.. الكلُّ يَبيعُ والكلُّ يشتري..

المؤذِّنُ يصدح بالأذان لصلاة الجمعة من عِدَّة مساجد.. وينتشر بها في القلب المؤمن أَرِيجُ الإيمان والاطمئنان.. دخلنا مشرباً صغيراً لنشرب شيئاً قبل مواصلة الرحلة إلى تَعِزّ.. وأشرتُ على صاحب المشرب أن يمنحني كأساً من الليمون.. فهو أكثر إطفاءً للحرارة والتعب.. ووضعتُ الكأسَ على فمي أَرْشُفُ الليمون وأتأمَّل الأشياء المتناثرة في ذلك المشرب الصغير.. المعلبات بأنواعها.. القوارير المعبأة بما لَذَّ وطاب من العصير والسوائل.. والمياه المعدنية المعلبة.. وعلب النعنع والحلويات والبسكويت.. وطاولات لألعاب مختلفة.. وجهاز لسباق السيارات الكهربائية.. ومنافيخ وسرج.. وأشياء مجموعة ومتفرقة يتعب الناظر في ملاحقتها ورؤيتها.. وفي غمرة هذا الانسجام بين الشرب والتأمل وقفتْ سيارتُنا على باب المشرب إيذاناً بالارتحال.. ونقدنا صاحب المشرب نقوده.. وركبنا السيارة في طريقنا إلى مدينة تَعِزّ.

طريقٌ معبَّدٌ ومنظمٌ ونظيف.. يُدْخِلُ الرائيَ إلى عالم حالم من الارتياح والسكون والانسجام.. وهناك بَوْنٌ شاسِعٌ بين هذه الطريق وبين تلك المنعرجات والمنعطفات التي كابَدْناها لثلاثِ ساعاتٍ متوالية.. ولعل الإحساس بالإيمان يجعل المرءَ يفكِّر في مرحلة الهدوء.. وتنتبه حواسه المطاطية إلى المفارقات والمباينات هنا.. بينما كانت في الحال الآنف لا تفكر إلا في الأمن والسلامة وحدها.. ولو على طريق مفروش بالأشواك.. توقفنا وقتاً قصيراً أمام نقطةٍ تفتيشٍ هامةٍ ودار في الموقع حوار شديدٌ بين السائق والجنود حول بعض الإجراءات الروتينية لحمل الركاب.. وكاد الجنود أن يخرجونا من سيارتنا لنبحث عن غيرها.. ولكن الموقف تغير بمجرد ذهاب السائق مع الضابط إلى الخيمة المجاورة.. وسمح لنا بمواصلة الرحلة .

الطريق تنطوي طيَّ السحاب للطائرة.. ونرى القرى الصغيرة المتناثرة تنتشر على جانبي الطريق الزراعي الخصب.. وأمام كل قرية نقرأ لافتةً عريضةً تحمل اسمها.. والحقول والـ ـمزارع الخاصة تحتشد مد الأفق احتشاداً.. والفلاحون والفلاحات بين ساعٍ وراكبٍ وقائمٍ وقاعدٍ.. ونسوةٌ يركبنَ الحميرَ بين المزارع والحقول ذاهباتٍ آيباتٍ.. ودرّاجاتٌ ناريةٌ بأعدادٍ تَفُوقُ التَّصَوُّر .

لـ ـم أصدق نفسي عندما وجدت سيارتنا على هذه الطريق الطويل تحيط بها أكثر من عشر دراجات نارية ! كلُّها تود أن نفسح لها الطريق لتـ ـمر قبلنا .

إنه جنون الحضارة المادية الواضح كلـ ـما اقترب المرء من المدينة.. يُشْعِرُ الإنسانَ بالدُّوَارِ من كثرة الصَّخَب.. ما أجمل الجسور.. بـ ـنـ ـيتْ بعناية فائقة على بعض الأودية الخضراء.. وألوان تجتذب العقلَ واللبَّ حتى ينطلق في قيد التأمل مأسورا .

الجوُّ يتلبَّدُ بالغيوم.. وكلـ ـما انطوت الطريق لنا تتكثف السحب وتَسْوَدُّ السماء.. وانهمر المطر رذاذاً ثـ ـم أصبح كالقِرَبِ النازلة.. والْتَحَفْتُ بعمامةٍ بيضاءَ كانت في حقيبتي.. بينما كان عددٌ من الركاب يقبعون تحت كابينة السيارة طلباً للدِّفْءِ والحماية من الأمطار.. وظهرت المنازل البيضاء والسيارات الجميلة والـ ـمعالـ ـم المتناسقة الحضارية.. أعمدة الكهرباء والإعلانات والدعايات والـ ـمعارض الجميلة .. وكانت مدينةَ تعز !

دخلنا مدينة التاريخ الأثيل.. في جوٍّ جميل.. فامتلأ فؤادي هدوءً وانسجاماً وحباً للحياة.. تذكرتُ ما كنتُ أسمعه في كتب الحديث عن خروج أهل النار إلى الجنة.. حيث يغسلون في نهر الحياة فينبتون كما تنبتُ الحَبَّةُ في حَمْأَةِ السَّيل.. مدينةٌ ضخمةٌ واسعةٌ ونظيفة.. وعمرانٌ حديثٌ ومُنَسَّقٌ.. وحركة للبشر والآليات لا توصف!

كنتُ أتوقع بين الفينة والأخرى أننا سنقطع شارع المدينة حتى نبلغ آخرها ونقف.. ولكن – ويا للعجب – طال المسير والانطلاق وكأنما هي أفعى تـ ـمتد وتـ ـمتد !

وكلما توغلنا في شوارعها تتسع اتساع القلب لمحبيه ! يا لَهَول المفارقة ! لقد أَلِفنا رُكوداً ورَتابةً وتَذَمُّرا.. وفراغاً مُدَمِّرا.. وهانحن اليوم نذوب في الناس.. نضيع في الزحام.. ننبهر بالواقع !!



إلى الحديدة..

- الحُدَيدَة.. الحُدَيدة..

هكذا كان الصوت المتردد يرتفع كلما اقتربنا من زحام السيارات في الموقف.. وحَدَّقْتُ بعينيَّ في عالم لا يُدرَكُ طَرَفُه من طَرَفه.. الكلُّ يحتشدون في ميدان عام حول موقف السيارات الرسمي بمدينة ((تَعِزّ)) .. وبحثتُ بأذنيّ وعينيّ عن مصدر الصوت المنادي: الحديدة.. الحديدة.. ولم تزل سيارتنا تسير ببطء في الزحام لتبلغ موقعها النهائي.. والمطر يكاد أن يخفي عنيّ رؤية الخلق كلما تكثفت البرودة على الزجاج.. ودلفت إلى الخارج بمجرد استقرار السيارة في موقفها.. وهرع إلينا الأَدِلاّء.

- الحديدة .. الحديدة..

فقلت: نعم.. الحديدة..

وقال رفقتي :

- نحن أيضا نريد الحديدة..

وببشاشة المحِبِّ للحياة فتحَ لنا باب سيارته ((البيجوت)) الحديثة ذات الأربعة أبواب ((صالون)) ودلفنا إلى الداخل.. ما أمتع الرؤية من خلف الجدران الزجاجية.. وما أمتع الوقت الذي يمر في جو متلبد بالغيوم الممطرة على شخصياتٍ تبحث عن نَماء في نَماء.. وتهتزُّ نفوسها وتربو بين المجاملات الإنسانية الجديدة ومطر السماء..

وامتلأت السيارة بالركاب.. ولـم يمض من الوقت إلا القليل حتى كنا في طريقنا إلى الحديدة .

انقشعتِ السُّحُبُ المتلبِّدَة رويداً رويدا.. وانزاحت الغيوم بمجردِ توغلنا في صحراءَ واسعةٍ لا نهاية لها في نظر العين المجردة.. صحراءُ واسعةٌ تفصل بين مدينة الحياة وميناء الحديدة.. بدأت الشمس المحرقة ترسل أشعةً ملتهبةً التهاباً شديداً.. وبدأ العرق يتصبب من الأجسام.. وبدأ الملل يرتسم على الوجوه.. أدرك السائق ما نعانيه من تغير الجو.. ففتح جهاز التسجيل بأغنية.. وانطوت مسافة الطريق بين الصمت والتأمل والسبات.. ولـم يتكلـم منا أحدٌ مع غيره.. خَشيةَ تَسَرُّبِ الأحاديث الموقِعَةِ في عَودةِ دائرةِ الخوف التي كُنّا ضِمْنَها قبل ساعات قلائل.. ووقفت السيارة في قرية صغيرة تخترقها الطريق.. وخلدنا إلى شيء من الراحة والاستجمام بعد التبرم والضيق من وطأة الحر ولهيب الشمس المحرقة.. حتى نادى السائق على الجميع بمواصلة الرحلة.



أبناء العمّ..

الحديدة.. مدينةٌ ضخمةٌ حقّاً وكبيرةٌ وحديثة المباني والـمشاريع والحركة التجارية.. مدينة تَرْبِضُ على ساحل البحر الأحمر.. وتتلقى نسيمه العليل وسُحُبَه الركاميةَ لترسلها إلى المرتفعات قبل أن تجود بنقطة مطر واحدة.. فلذلك يشتد الحر في هذه المدينة اشتدادا.. ويزيد على هذا الحر المزعج كثرة الحركة الآلية.. بحيث تفوق تَصَوُّرَ مَن لا يَأْلَفُ الزِّحامَ.. سياراتٌ من كلِّ حجمٍ ولونٍ تَغَصُّ بها الشوارع غَصّاً.. ودراجات نارية كأنها النمل في مملكته.. ويتداخل غبار الطريق الترابي بدخان

السيارات ودخان السجائر والـ ـمصانع الصغيرة.. وسألت راكبا في السيارة عند وقوفنا في محطة الوقوف العام :

- كم الساعة ؟

- الرابعة عصرا .

ونَقَدْتُ السائقَ أُجرَتَه.. وودعتُ رفقة الرحلة الطويلة.. وأَشَرْتُ على عربة الأجرة الرسمية لأركب إلى عنواني المقصود.. وقفت السيارة تحت عمارة ضخمة كبيرة فخمة.. ونزلتُ إلى بابها والتفتُّ إلى نفسي فرأيتُ أني غريبٌ كلَّ الغرابة في هذا المبنى الجميل الحديث !

ملابسي.. جسمي.. أدواتي.. حقيبتي.. الكلُّ يستحقُّ الرَّثاء.. لا يصلح أَنْ يكون عنصرَ مدينةٍ جميلةٍ كهذه.. ربما صلح للاستـ ـمرار في مغامرةٍ كتلك.. لابدَّ من التفكير قبل الدخول إلى الدار .

تحسستُ جيبـ ـي فوجدتُ وُرَيقاتٍ من العملة اليمنية.. ونزلت متخذاً لي طريقاً خاصاً إلى معرضٍ لاحظتُ فيه أنواع الملابس.. أخذتُ ما أحتاج إليه منها دون أن أُكثر الحديث.. وفي أسفل العمارة دَسَسْتُ كلَّ مشترياتي في الحقيبة الزرقاء.. وضغطت الزرَّ الكهربائي بعد تردُّدٍ وتَقَزُّزٍ لحالي ونفسي وملابسي.. وأَطَلَّ ابنُ عمي «عمر» وارتسمتْ علامات الدهشة الممزوجة بالفرح ، ودلفت إلى الداخل الأمنيِّ الحقيقيّ.. وانتهت مسافةُ الخوف حِسّاً ومعنىً.. وتَنَفَّسْتُ الصُّعَداءَ بعد رحلة الأعصاب السريعة.. أربعٌ وعِشرونَ ساعةً.. بلا هُوِّيَّةٍ.. وبلا قَلْبٍ..

ويا للعجب !.. هاأنا ذا أبحثُ عن مكانٍ أُخْفِي فيه مُخَلَّفاتِ رحلتي.. الثياب.. والأحذية.. والحقيبة.. ووجدتُه خلف العمارة الكبيرة في شارع عبد المغني .



الحديدة..

أعجبتني هذه المدينة الصاخبة.. ضخامتها.. تخطيطها.. اتساعها.. حركتها العمرانية.. تجارتها المتنامية.. زخم البشرية المتَلَهِّف.. كلُّ شيءٍ فيها يتحرَّكُ بسرعةٍ واجتهاد ، وكل ذلك رمزٌ ظاهرٌ فيها لأمثالي ؛ ولكنَّ بها من العيوب الشيء الكثير .

ولعل مُكْثِي بها تحت طائلة الأمن والاطمئنان جعلني أَحْفُرُ عن العيوب ، وأتناول الأمور بعمقٍ أكثرَ من المشاهدة السطحية ، وهم يقولون عند مقارنتهم للماضي والحاضر: إن البلاد عموماً قد دخلتْ طَوراً جديداً من الإشراق والازدهار .

إنها مدينة ينقصها النظام أولاً ، فوضى سائدةٌ **ومشروعةٌ** في ذاتِ الوقت ، حيث إِنّ الغالبية العظمى هم اليمنيون ، فيعتبرون الأرض مُلْكَهُم والقوانينَ مستوردةً.. ولا يلتزم بها إلا من يخشى الحكومة ، ومن ليس له بها نصيرٌ ولا مُؤازِر.

سائقو السيارات والدراجات لا يلتزمون بقوانين المرور ولا آداب الطريق العام ، يرتكبون المخالَفات وبشجاعةٍ غريبة ، ويدافعون عن أنفسهم وعن أخطائهم وكأنما لم يرتكبوا مخالفة قط ، رجلُ المرور لا تعرف مهمته إلا بعد أن تراه أياماً وتَأْلَفَ مَنظَرَه ، بحيث يتبين لك من سلوكه أنه مسؤول النظام ، ملابسه لا تدل على وظيفته، وَقْفَتُهُ في الشارع لتنظيم المرور لا تحمل طابعَ الجِدِّيَّةِ والاهتمامِ ، كلُّ ما في الأمر أنه يحمل في يده صافرة مرور ، ويكد جاهداً برجليه بعد كل تصفير ليقنع المتمردين بالالتزام ، وحتى دراجة المرور هي نفس الدراجة العادية التي يستخدمها المواطن العادي حجماً ولوناً وتركيباً !

الأوساخ والأتربة تغطي شوارع الحديدة الرئيسَةِ والفرعيةِ ، وعمال البلدية يظهرون فرادى في الصباح الباكر يحملون المكانس ليمروا بها مرور الكرام – كما يقال – على

بعض الأوراق والنفايات المرمية على الأرض ويتركون الباقي من الأتربة إلى الغد.. وهكذا !

حفائر الإصلاح متعددةٌ على طول مسافة بعض الشوارع وعرضها ، أعمالُ الصيانةِ والكهرباءِ والهاتفِ والبلدية ، وبعضُها مُتَدٌّ منذ زمنٍ طويلٍ كأنما هي حفائرُ تنقيبٍ عن المعادن ولـ ـم يهتـ ـم بها أحد ، وصارت المدينة بها مشوهة ومعطلة .

((الكورنيش)) – كما يطلقون عليه – يثير التقزز من روائح الأسماك النتنة والقاذورات المنتشرة بحيث لا يمكن الوقوف أو المشاهدة إلا لـ ـمن أصيب بالتشبع الجرثومي ، أو دَعَتْهُ الحاجةُ لشراء السمك أو غير ذلك، مع أن هناك ((شركة كورية)) تعمل في إصلاح المجاري، ولست أدري كيف يطيق العمال تلك الروائح بصفة دائمة؟ إن رائحةَ السمكِ الطبيعيةَ إلى حَدٍّ ما يقبلها الإنسان ولا يتأفَّف منها كما يتأفَّف من بقايا السمك والأحوات التي يتناثر منها الدود في أرجاء الساحل البحري والكورنيش المعْتـ ـم.

وزِيُّ المواطن التقليديّ زيٌّ غيرُ متناسقٍ فيما رأيتُ.. إما قميصٌ فضفاض إلى نصفِ الساق.. أو خليطٌ من الملابس المختلفة التي يمتزج فيها اللباس اليمني التقليدي بحشد من الأزياء الأخرى.. ولَيتَهُمْ يلبَسون ثياباً نظيفةً.. إنها ظاهرةٌ تكاد تكون عامةً في مدينة الحديدة . لأنهم في غالب الأمر عمال وتجارٌ مباشِرون للأوساخ والأتربة.. ومع ذلك فهم لا يَتَخَلَّوْنَ عن ذلك الخنجر الكبير الذي يلتصق بأسفل الذَّقَن.. ولهم به عِزَّةٌ وأيُّ عِزَّة.. لأنه يمثل صَمِيمَ التراث كما يقولون ؛ ولكنَّ وِجْهَةَ نظري أنَّ التراث والاعتزاز به يأتي بواسطة العلـ ـم والـ ـمعرفة وملائمة الواقع المتطور.. مظهراً ومضموناً.. فالتراث ليس قميصاً وسخاً ولا خنجراً كبيراً.. وإنما هي وسائلُ كانت ملازمةً وملائمةً لعصورٍ مَضَتْ.. وإحياؤها أمرٌ لا بأس به إذا استطاع حاملها أن يُكرِمَها ويَعِيَ شأنها..

التراث في رأيي – واللّٰه أعلـ ـم – دفاعُ اليمني المستـ ـميت عن الفكر الإسلامي الصحيح.. الذي كان لأجداده فيه دَورُ النُّصرَةِ والانتشار في تخُومِ الأرض وأطرافها..

مستخدماً كلَّ الأسباب الحديثة المعاصرة لهذا الإحياء النبيل.. إن اليمني المعاصر تزحف عليه سمات الحضارة الحديثة في مظهر مدنيته.. وتدمر عليه تراثه الفكري العظيم.. وهو وغيره يصرخون صراخَ المستـ ـميت على الالتزام بالقميص والخنجر .

✸✸✸

مكتب البريد..

مكتب البريد بالحديدة كانت لي إليه زياراتٌ متعددة.. ولعله الصورة الهامة التي يلتقي في إطارها اليمنيون مع غيرهم من العرب والـ ـمسلـ ـمين.. وهو المنفذ الهامُّ للاتصال بالأحبّاء في الخارج.. ملابس الموظفين فيه متباينة.. ولا يدلُّ مظهرُ أحدِهم على أنه موظف في البريد.. والأبشع من هذا أنهم يمضغون القات على مكاتبهم.. وأمام أجهزة الحساب والهاتف وغيرها.. على وجوههم برودٌ وسذاجةٌ مفتَعَلَة.. تخاطب أحدهم ليُنْهِي لك عملاً وهو مستغرقٌ في مضغِ القات أو الحديث مع زملائه.

دخل رجلٌ في قَدَمَيهِ قَيدٌ يَرْسُفُ فيه ويحملُ بيده حبلاً متصلاً بالقَيدِ الحديديّ حتى لا يَعُوقَه عن الحركة.. أثارَ المنظرُ عَجَبَ الجميع.. ودخل خلفه جنديٌّ لا يدل مظهرُه العامُّ على ذلك.. وإنما قيل لنا : إنه جندي.. مظهرٌ بَشِعٌ أن ترى في مدينةٍ حديثةٍ كالحديدة رجلاً بقَيدٍ حديديٍّ يُسمح له أن يتجوَّل.. وجنديّاً رسميّاً يخرج مع سجينٍ إلى الإدارات الرسمية ولا يلبَسُ البَزَّةَ العسكرية.. الأجانب يتطلعون **باستغرابٍ** ودَهشة.. وأنا أَتَطَلَّعُ **بأَلـ ـمٍ وأَسَفٍ**.. والـ ـمعتادون على ذلك **لا ينظرون** إلى كل هذه الأمور.. **أهذه صورةٌ من صُوَرِ الاعتزاز بالتراث أيضاً ؟!**

الـ ـمسدَّس الناريُّ ظاهرةٌ حضاريةٌ في الحديدة.. يَلُفُّونَ حوله منديلاً ويدُسُّونه تحت الحزام.. قال لي أحدهم :

- هنا قريةٌ يمنيةٌ معروفةٌ تُباع فيها الأسلحة على اختلاف أنواعها وأحجامها.. بدايةً بالمدفع الثقيل إلى طلقة المسدس الصغيرة.. والقنابل.. والديناميت.. والألغام.. كلُّها هناك مفروشةٌ ومعروضةٌ قريباً من الموز والعنب والتفاح.. و.. كلُّ شيء بثمنه .



مشكلة الحضارة والتمدن..

ليت هؤلاء يتعرَّفون إلى معنى المظاهر الحضارية فيلتزمون معها الاعتدال لتكون اليمن حضارية الماضي والحاضر.. إن النظام شكل من أشكال الحضارة ينبثق من المضامين التراثية.. والأمن والاقتصاد والـ مواصلات وتخطيط المدن والخدمات والـ مرور والكهرباء والهاتف وغيرها من عناصر المدينة الحضارية.. إلا أن لكل أمة تاريخاً عريقاً وتراثاً مزدهراً.. ولعل اليمن أُمٌّ من أُمَّهات الحضارة العريقة في التاريخ الإنساني عموماً.. إن العلة لا تكمن في رَصْفِ المظاهر المستوردة.. وإنما هي ناخِرَةٌ في العقلية البشرية الحائرة الجائرة .

ونَقِفُ آخرَ ما نَقِفُ عليه من العلل والأمراض على السُّمِّ الزُّعَاف الذي خَدَّرَ العقلَ اليمنيَّ عصوراً وأوقَعَه في نكباتِ الحياة.. إنه يَفْتِكُ بهم فتكاً ذريعاً.. وماذا عساك أن تقولَ وكلُّ الناس يمضغون ؟

ومضغُ محتوياتِ دفاتري أقربُ إليَّ من إقناعِ شعبٍ لا يوالي أحداً.. ولا يعترف بسلطان أحد.. ولا يدركُ الأفرادُ فيه مصلحتَهم حتى بالقوانين.. ولا يوجد للقانون على الأغلبية سلطانٌ.. إنه شعبٌ لا يؤمن بالقناعات السِّلـ ميّة لأنه عاش العنفَ ورَبَا على آثاره.. ولكل قاعدةٍ شذوذٌ أو شواذٌّ.. ولا حكم في المجموع على الشذوذ.. حتى يَجْبُرَ الشُّذوذُ المستقيمُ قاعدةَ الانحرافِ على العَودِ إلى الجادَّةِ المثلَى..

وتلك مشكلةٌ حَلُّها ليس بيدي..

أبو بكر بن علي المشهور

الحديدة – ذي القعدة ١٤٠٠

سبتمبر ١٩٨٠

القِسْمُ الثَّانِي

مِنَ الحُدَيدَةِ إِلى الحِجَازِ

دَعني أُكَفْكِفُ سَحَّ الدَّمْعِ يا زَمَني ... فقد مَضَتْ دَولَةُ الآلامِ والحَزَنِ

دَخَلْتُ دنيا سُرُورِي مِن منافِذِها ... وجُزْتُ مرحلةَ الأخطارِ والمحَنِ

ونِلْتُ ما كان حُلماً في مُخَيِّلَتي ... أَطُوفُ منطلقاً في الرِّيفِ والمدُنِ

كالطيرِ مِن قَفَصِ السَّجّانِ مُنْفَلِتٍ ... حُرِّيَّةُ الذاتِ تَحْوِي أَشْرَفَ المِنَنِ

الشَّوْقُ والتَّوْقُ والإِعتاقُ مُنْسَجِمٌ ... في لَحْنِ أُنشُودَةٍ فاقَتْ على زَمَني

والمرْءُ لو دَخَلَ التَّدْميرُ ساحَتَهُ ... قَضَّ المنامَ وجاء الصَّبْرُ بالوَهَنِ

والعَزْمُ يَسْتَنهِضُ الأَدْنَى لمطَّلَعٍ ... تَقاصَرَتْ دُونَهُ آمالُ ذي وَسَنِ

قد كنتُ في بيئةٍ حَرّاءَ تُقْلِقُني ... وتُنْبِتُ الشَّوكَ في قلبي لِيُوخِزَني

سُلِبْتُ حُرِّيَّتي حتّى ظَنَنْتُ بها ... ظَنّاً قبيحاً وخِفْتُ القُبْحَ يَأْسُرُني

كانتْ مُجاهَرَتي بالحَقِّ مَنْقَصَةً ... وبُحَّ صوتيَ في سِرِّي وفي عَلَني

أَسْتَمرِئُ المرَّ عَلَّ الدَّهْرَ يمنحني ... مِن بعضِ فرصتِه ماءً بلا أَسَنِ

لكنَّ مَرحلتي كادَتْ تُدَمِّرُني ... لولا خروجي بلا زادٍ مِن الوطنِ

وَجَدْتُ لي في بلادِ الغَيرِ مُتَّسَعاً ... وكنتُ في بلدي أخشى من الفتنِ

سبحانكَ اللّه ربي أنت مُعْتَمدِي ... في كلِّ حالٍ ومنكَ الفَضْلُ يَسْبَغُني



في انتظار البرقية..

- لا يَهْطُلُ المطر في الحديدة رَغْمَ كثافةِ السُّحُب..

هكذا قال لي ابن عمي ((أحمد)) أنَّ سُحُبَ الحديدة ((ترانزيت)) تنطلق إلى المرتفعات.. ويكفينا هنا أن نستمتع بظلالها المؤقَّتة .

نعم اعتبرتُ نفسي منذ أن بَرَدَتْ أقدامي عن السعي المقلق في طريق المغامرة المفاجئة أَدْخُلُ فترةَ استجمامٍ وراحةٍ واستعادةِ أنفاسٍ وتَقْدِيرٍ.. فالحدث في ذاته قصير الزمن إلا أنه فاصلٌ بين مرحلتين من الحياة كلاهما على جانبٍ من الأهمية ولا شَكّ.

هاأنا ذا أقبع في مدينة الحديدة أنتظرُ جواباً من أسرتي في العربية السعودية.. أعتقد أنَّ بَرقِيّاتي الثلاث كافلةٌ لإخطارهم بمكاني.. ((عُمَر)) ابنُ عمي يؤكِّدُ لي سوءَ الأساليب المتَّبعة في تسليم البرقيات.. لعله أراد أن يخفف قلق الانتظار.. لقد كان يُسَلِّيني كلما رأى بوادرَ قلقٍ خفيةٍ تجتاح وجهي.. وقد يطلب مني مصاحبته على سيارته لنقوم بجولة في البحر.

كان لديَّ وقتٌ مفتوحٌ لا حَدَّ لآخِرِه حتى أَجِدَ رَدّاً على برقياتي.. إذن لابد أن أَتَوَزَّعَ بين المواقع لأُشْغِلَ الوقتَ وأُذِيبَ التفكير.. هناك مصنعٌ ((للآيسكريم)) يملكه أبناء عمي في طرف المدينة يذهبان إليه صباحاً ومساءً.. كنتُ أشاركهم الذهاب.. وأُشغل نفسي بالقراءة والكتابة.. وقد نذهب في نزهةٍ خاطفةٍ إلى ((كيلو ١٦)) حيث توجد آبار الماء العذب.. نستمتع بالسباحة في البركة الكبيرة بين تعليقات بعضنا على بعض أو امتصاص فضول المارة وأصحاب السيارات القادمين لذات الغرض..

هناك على بعد أمتار من المنزل توجد حديقةٌ عامَّةٌ كتب عليها ((حديقة الشعب)).. وفي أحد زواياها توجد مكتبة صغيرة كتب عليها ((مكتبة الشعب)).. ومع سَعَة اللافتة لم أَرَ أحداً من الشعب يزور المكتبة طيلة وجودي بالحديدة سوى راعيها

الذي يجلس في ركن المكتبة يمضغ « القات » ويتصفح الجرائد والمجلات.. لم يعجبني ترتيب المكتبة ولا تنظيم رفوفها.. كلٌّ شيءٍ فيها مهملٌ وغيرُ مرتب رغمَ احتوائها على كتبٍ ذاتِ قيمةٍ تاريخيةٍ وأدبيةٍ ، ومجلداتٍ ضخمةٍ وذاتِ أهمية .

لم أتردد كثيراً على هذه المحتويات المبعثرة.. بل كنت أكتفي بالجلوس أمامها على أحد كراسي الحديقة أشرب كوباً من الشاي تحت ظل الشجيرات منشغلاً بكتابة شيء مما أَلِفْتُهُ في حياتي.

وكم كانت مُنيتي أن تنظم هذه الحديقة الواقعة في قلب المدينة الصاخبة المزدحمة..

إنها حديقةٌ تفتقر إلى أبسط شروط الحدائق.. فضلاً عن أهمها..

إنها حديقةٌ لا توجد بها شجيراتٌ تحمل أزهاراً.. وإنما وُزِّعَتْ في أرجائها كُتَلٌ من الشجيرات الغابية وشجيراتٌ من **النوع الشوكيِّ الصحراويِّ البَشِع مظهراً وأثراً**.. ولستُ أدري كيف تم اختياره في حديقةٍ كهذه ؟! وهناك مساحاتٌ أخرى فارغةٌ تماماً من أيِّ شيءٍ .

في وسط الحديقة مبنىً فخمٌ ومدوَّر البناء تُباع فيه أنواع المأكولات.. وبه عنايةٌ طيبةٌ ونظافةٌ بَيِّنةٌ..

شيءٌ غريبٌ!!

الموقع الذي يُغَذَّى فيه الجسدُ به عنايةٌ فائقةٌ حِسّاً ومعنىً.. والموقع الذي يغذَّى فيه الروح مهملٌ كلَّ الإهمال.. لعل هذا هو حال الواقع البشري.. يمكن لك أن تشاهد المارة والسيارات والمباني من داخل المقهى.. فحيطانه مركبة من زجاجٍ شفافٍ وسميك . وهناك شيءٌ عجيبٌ.. الناس تغمرهم سحائب اللّهث وراء الحياة.. إنه لا يهتمون بجوانب العطاء الجمالي إلا بمقدار.. إن أحداً من هؤلاء البشر المتدفقين على الحديقة لم أره خَلَدَ فيها أو في مكتبتها للراحة والتأمل.. أو حتى للتَّطَلُّع إلى شيءٍ من مفارقاتها الجمالية القليلة.. كلٌّ من يزور الحديقة من العمال

والمسافرين وبعض الأجانب.. أراهم يقضون غرضهم في عَجَلةٍ غريبةٍ ثم يُغادرون.. نعم هناك عددٌ من الشباب أَلِفُوا مجلساً في جوار المقهى يلعبون « الدومينو » أمام جهاز التليفزيون منذ أن تفتح البرامج الرسمية وإلى وقتٍ متأخرٍ من الليل.. ربما ذهب أحدهم فترةً من الوقت ثم عاد إلى دائرة اللعب من جديد .

لقد قال لي بعضهم : **إن راحة أهل الحديدة تكمن في مجالس القات وفي متابعتهم لأعمالهم المختلفة.. إنهم ليسوا فارغين حتى يستمتعوا بمظاهر الحياة الجمالية .**

لقد صَرَفْتُ وقتاً ليس بالقصير.. وجهداً ليس باليسير.. حتى أُرَوِّضَ نفسي مع المجتمع الجديد.. إنه ليس من السهل على الفرد أن يتخلص من أساليب حياةٍ عاشها رَدْحاً من عمره.. كما أنه ليس من السهل أن يستوعبَ عاداتٍ وتقاليدَ وطباعاً ووجهاتِ نظرٍ جديدةً بمجرد حلوله ضيفاً على مجتمعٍ جديدٍ .

هناك من الناس من يتأقلمون بسهولةٍ ويُسْرٍ.. بل ويهضمون الواقع على عِلاّتِه ويصنعون لأنفسهم جوّاً من الانسجام.. ولكني أرى أن أولئك لا يكلِّفون أنفسهم عناءَ التفكير في الفوارق بين المجتمعات.. وأولئك – من وجهة نظري – سطحيُّون إلى حدٍّ ما ، فما يَرَوْنَ من حياتهم إلا محاور الارتزاق ومواقع الكسب.. وتلك فئةٌ عريضةٌ في مجتمعاتنا .

أَمّا مَن له وَلَعٌ ذاتيٌّ بالمقارنة والمفارقة كظاهرةٍ بشريةٍ في متناقض البيئات والمجتمعات.. وله رؤيةٌ خاصةٌ في وضعِ المعادلات التقييمية بين بيئةٍ وبيئة.. مع امتلاكه وسائطَ ثقافيةً محددةً وإفرازاتٍ نفسيةً ، مثل هذا لابد أن يستنفر كلَّ أدواتِ ذاتِه ليقرأَ كُلَّ جديدٍ يراه في مجتمعٍ غريبٍ عن مُدْرَكاتِه وعاداته المألوفة.. فِكراً وتطبيقاً وثمرةً .

ربما اعتقد البعضُ بأني أُبالغ.. وخصوصاً أن البلاد واحدة.. ولا يفصل بينهما سوى أميال قليلة.. أميالٍ في المستوى الجغرافي أو المستوى التاريخي.. وأيضاً هناك تَقارُبُ التقاليدِ والعاداتِ وأسلوبِ الحياة..

هذا صحيحٌ.. ولكنها في عين المتأمِّل والمتعمق تُظهِر المفارقاتِ بحجمٍ أكبرَ مما يُدْرِكُه السطحيون.. إن الناس هنا يفكرون بعقليةِ المال والتجارة والجشع والمغامرة في سبيلها.. وهناك يفكِّرون بعقليةٍ قلقةٍ في ميدان التجارة ومدركاتٍ مَشُوبةٍ بالخوف والحذر والترقُّب.. إنهم هنا في ميدان الجشع ينطلقون في مغامراتهم دون قيودٍ أو قوانينَ مؤثِّرة.. وهناك يتحرَّكون ببطءٍ وعلى قيودٍ وقوانين تحدِّدُ كلَّ شيء في الحياة.. هنا مفارقاتٌ اجتماعيةٌ وأخلاقيةٌ.. فالمرأة مثلاً لا تَجِدُ أثراً لمظهرها السافرِ الجريءِ هنا.. أما هناك فلا يكاد موقعُ قَدَمٍ من المدينة إلا وفتاةٌ على ظهره تَتَنَزَّى وتتحدى.. وهذا يعني أن هناك فوارقَ جمةً في النظر إلى المرأة والاقتصاد.. هناك تجد تطبيقاً حرفياً لِلَّوائحِ والقوانين.. وهنا تجد ألواناً من الفوضى والمخالفاتِ القانونية المتعمدة.. هناك لا يجرؤ موظفٌ أو مديرٌ أن يسأل امرأً رشوةً أو هديةً.. وهناك تسعى إليك القضايا بمقدار ما تَبْذُل.. وهذه مقارناتٌ ضئيلةٌ من مجتمع يَعُجُّ بالغرائب.

✸✸✸

«السهل» الرفيق.. طول الطريق..

تتراقص أمامي اختياراتٌ متعددةٌ منذ وصولي لمدينةِ الحُديدة.. فالحديدة ليست مقصدي.. ولكنها أولُ محطةِ انتظارٍ مأمون.. إذن فمِن هنا لابد أن أختار الوسائل للاستمرار.

- إما السفر بالطائرة بعد الحصول على الجواز.

- أو الانتظار للفكرة التي سيبعثها لنا الوالد من الحجاز.
- أو استمرار المغامرة عبر الصحراء إلى الحدود السعودية .

وكانت هذه الاختياراتُ تَدُورُ بخَلَدِي.. يترجَّح بعضها على بعض.. حتى قيل لي: إن الاختيار الأول يبدو سهلاً وممكناً في الاستمرار إلى النهاية.. واستعنتُ بابن عمي ليبدأ في مساعدتي لإخراج الجواز من الحديدة.. ولم يكد العمل في الاختيار يسير أياماً قليلةً حتى بدا الفشلُ واضحاً كلَّ الوضوح.. رَغْمَ المحاولاتِ المضحكةِ المبكيةِ في سبيل إنجاح الفكرة وإخراج الجواز.. ومَرَّتْ ثلاثَة عَشَرَ يوماً دون حلٍّ ذي بال أو فائدة.. ودون جواب من أسرتي.. وكاد القلقُ أن يستبدَّ بالذات من جديد.. وكلما عُدْتُ لأنظرَ في حصيلة الأيام الماضية أجدُ أمامي كوماً من الوريقات ولا شيء غير ذلك .

ماذا حقَّقْتُ من أحلامي في الحديدة ؟ لقد شرعتُ منذ وصولي إلى هذه المدينة في كتابة رحلتي كشاهدٍ حقيقيٍّ على لواعج الذات وإحساسها بالحرية.. وكتبتُ دراسةً شعريةً على ديوانٍ شعريٍّ للإمام العلويِّ شيخ الشيوخ بحضرموت السيد عبد اللّه بن علوي الحداد[1] .. وكان ذلك في فراغ الأيام والليالي خيرَ أنيسٍ وجليس.. ولم أكد أطوي وريقات الدراسة المتواضعة وأفرغ من وقائع الرحلة المفاجئة حتى جاء الأملُ بأخباره.. سَرَى عني بعضُ الهَمِّ بمجرد استلامي للبرقية الأولى.. وارتفعت معنويتي باستلام البرقية الثانية.. وهكذا بدأ التفاؤل يغزو إحساسي ثلاثة أيام .

(١) ولازالت مسودةً لم تتم بعد ، وممن أثرى هذا الباب العلامة السيد حسين بن محمد الهدار في مؤلفه الحفيل ((رحلة في ديوان الإمام الحداد)) ، تناول فيها بدءً جوانب حياة الإمام الحداد وشخصيته وترجمته ، ثم عرج على قصائده مرتباً تناوله إياها على المواضيع والأبواب الأدبية والعلمية والسلوكية ، وهو مطبوع.

رَنَّ جرس الهاتف في حجرتنا ليحمل خبر الدليل القادم من أرض الحجاز.. كان الرفيق ((السَّهل)) كعادته يحمل في جيبه بطاقته الخاصة لينقذ من تخلف عن الركب أو عجزت به الأسباب..

وصل إلى تعز.. وسيكون غداً في الحديدة.. وانطوى التبرُّم والقلق ليصبحَ عجينةً من صَلْصالٍ في يدِ فنانٍ متفائلٍ يُشكِّلُ بيديه صلصالَه من حالٍ إلى حال.. كلُّ الأشكال لا تُوَضِّحُ حجماً معيناً.. وإنما هو تجريدٌ لشيءٍ مقصودٍ لـم تتحدَّد سِماتُه الواضحة.. وكان لابد من الإعداد والاستعداد.. وأشرقتْ شمسٌ جديدةٌ في سماء الحديدة تراها عيني شمساً باهتةً لا مثيل لها.. بل بدا لي أنها ترسم على الأرض خطوطاً من التفاؤل لـما رأيت الضيفَ القادم قد أطلَّ على غرفة المكتب بالـمصنع الصغير .

وضَحِكَ مِلْءَ فِيه.. وبين النكتة والسخرية والضَّحِكِ المبحوح وَدَّعْتُ أبناءَ عَمِّي وودعتُ الحديدةَ بما فيها.. وركبتُ العربةَ حاملاً أَنْصَعَ الذكريات..

هذا هو رفيقي الجديد.. إنه لاشكَّ رفيقٌ يُعتـمد عليه في الرخاء وفي الشدة.. فقد امتلك خبرةً طويلةً ومِراساً لا يُجارَى في أمرٍ كهذا.. أليس هو الذي شَقَّ طريقَه إلى شمال الوطن عبر باب المندب سيراً على الأقدام ؟ أليس هو الذي أُودِعَ السجنَ مرَّتين؟ مرةً في جنوب الوطن والأخرى في شماله؟ كانت الأولى لطَمْسِ هُوِّيَّته والثانيةُ لإثباتها.. سُجِنَ في جنوب الوطن بإشارة من مُرَكَّباتِ حِقْدٍ دَفين.. وسُجِنَ في رحلته بإشارةٍ من فاعلِ خيرٍ.. واختارَ لنا ((السَّهْلُ)) طريقاً صعبةَ الانطلاق .

كنا خلال رحلتنا من الحديدة إلى تعزٍّ نَسْتَعْرِضُ كلَّ شيء.. الأخبار عن الوطن والأهل والرحلة المفاجئة وردود الفعل لدى الأهل ، وحديثاً عن رحلاته ومعاناته ، وعن المستقبل والحياة في كَنَفِ الأهل والإخوان.. لـم نكد نصمتُ عن موضوعٍ حتى يتفجَّر لنا غيرُه.. نقضي بذلك وقتاً لطيفاً يطوي رَتابَةَ المسافةِ التي امتدَّتْ أكثرَ من أربع ساعات.. كنا نسترسل في الحوار حتى نكادُ ننسى أننا مع غيرنا ركابٌ في

السيارة.. وقد نصمتُ حتى كأن لم يكن هناك حديثٌ نتحدث به.. كنت أشعر أحياناً بفضول بعض الركاب عندما يُنصتون لأحاديثنا وكأنهم استغربوا هذا الانسجام الغريب.. قال أحدهم :

- لا شيء في الطريق مثل الصديق.. يُسلّيك ويبعد عنك هموم المسافة .

وكان رأيه صحيحاً وسليماً.. فأنا أذكر أنني شعرتُ بالغَثَيان من الصمت المطبق خلال الأربع الساعات من تعز إلى الحديدة عندما دخلت إليها قبل نصفِ شهرٍ تقريباً..

ويعتدلُ الجَوُّ كلما اقتربنا من مدينة تعز.. ويتحول الاعتدال إلى برودةٍ وغيومٍ.. ثم إلى رَذَاذٍ من المطر.. لم يستمرَّ على حالٍ واحدٍ.. إذ تَحَوَّلَ إلى قِرَبٍ من الماء مصحوبةٍ بزمجرةِ الرعدِ ووَمِيضِ البرق.. لمجرد أن يلمع البرق ننتظرُ قصف الرعد.. وبينهما وقتٌ قصيرٌ لا يجاوز الثواني .

كنا نتأمل الطريق العامر على مدخل مدينة تعز الجميلة..

الشلالات المائية تنحدر من جبال تعز الخضراء.. إنه جمالٌ وجلالٌ يمتزج على صفحة الطبيعة المحيطة فيَسْلُبُ من الرائي قدرتَه على التعبير..

نوافذ السيارة مغلقة.. والمطر ينهمر على جوانبها ويتكثَّف الماء من الداخل على الزجاج من شدة البرودة.. وتمر على الوجه لَفْحَةُ نسيمٍ باردةٍ يحملها الجوُّ النديُّ الرطب..

ومررنا على نقطةِ تفتيشٍ عسكريةٍ وبمجرد وقوفنا دَوَّتِ الصاعقةُ على مَقْرُبَةٍ مِنّا دويّاً هائلاً ومزعجاً.. فاخترط الجنديُّ مسدسَه ظانّاً أن هناك رصاصاً قد انهمر عليه.. اختلطتْ ابتساماتُنا بشيءٍ من الخوف والترقب.. وتحوَّل الأمر بعد أن جُزنا النقطةَ العسكريةَ إلى ضحكٍ وقهقهةٍ مثيرةٍ.. كلُّ الركاب يضحكون.. ومن هذه المفارقات تظهر عظمةُ الخالقِ وقوَّتُه.. وضَعْفُ المخلوق وحَيرَتُه .

ها نحن على مشارف مدينة تعز.. العروس الجميلة التي عشقتها الأقدار فمنحتْها كلَّ أسباب الرضا والجمال.. هذا هو جبل صبر.. ماردٌ جبارٌ يلبَسُ حُلَّةً خضراء مطعمةً بالفصوص البيضاء والصفراء.. نعم إنه جبلٌ يزخر بمعطياتِ الحياة وأسبابها.. أكسبته الأيام من الخضرة أبهج الألوان.. ونَحَتَ على سفوحه وقمته الإنسانُ الآثار والعمران.. كم تَغَنَّى شعراؤُنا ونسجتْ قرائِحُهم حولَه أبدعَ القصائد وأروعَ الأناشيد، وكذلك الأدباء والـ ـمفكرون والـ ـمؤرخون والعشاق والهائمون في سُبُحاتِ الجمال والجلال.. ما أعظم الامتداد الذي يشغله هذا الجبل الزاهي على مساحة الأرض الخضراء .

هذه هي مدينة تعز مرة أخرى.. الحركة الدائبة صفةٌ من صفات هذه الأرض الطيبة.. فالناس دائماً تراهم في أرجائها يتحركون.. وفي حركتهم هذه يترجمون معنى الحياة المبدعة في أجلى صورها.. السيارات هنا من كل نوعٍ وحجمٍ تـ ـملأ شوارع تعز.. حتى لكأن التُّخَمَة تكاد تخنق المدينة الزاهية.. وهناك الدراجات النارية تتخلل المسافات بين السيارات.. أصواتٌ تختلط من كلِّ حَدَبٍ وصَوبٍ.. من الآلة ومن الإنسان ومن الحيوان.. يعتقد الرائي لأول وهلة أن كل الناس هنا ولا يوجد على الأرض غيرهم بهذا الاكتظاظ.. إنه شعبٌ غنيٌّ بالعطاء البشري والروحي والـ ـمادي.. ولكل عطاءٍ رجالٌ وأمةٌ.. مساجدهم تـ ـمتلئ بالـ ـمصلين في كافة أوقات الصلوات.. هناك مساجدُ كثيرةٌ بـ ـنـ ـيتْ في تعز على الطراز الحديث.. مفروشةٌ بأفخم الفرش الحديثة.. لَيتَهُم إلى جانب هذا يهتـ ـمون بنظافة حمّاماتِ مساجدهم.. هذا هو عيبهم الكبير والذي لـ ـم أجدْ له مبرراً معقولاً ولا منقولاً.. ولا عذر لهم في ذلك .

لقد قضينا في هذه المدينة أربعاً وعشرين ساعةً تقريباً ضيوفاً على جماعة من أصدقاءِ دليلِنا المصاحِب.. كان قد رَتَّبَ معهم موضوع السفر إلى « نجران » .. وقد لـ ـمستُ

فيهم كرم الضيافة وأصالة العنصر وصدق المحبة وشهامة الأخلاق.. كانت هناك بعض الاجراءات اللازمة للسفر لابد من تدبيرها خلال مقامنا.. ولـ ـم تشرق شمس اليوم التالي إلا ونحن على كامل الاستعداد.. ركبنا السيارة « التويوتا الصالون » كما يطلق عليها وكان الوقت عصراً.. ودارتْ عجلاتُها على طريقِ رحلةِ قَدَرٍ جديدةٍ نحو **الدائرة الخضراء .**



نحو الدائرة الخضراء..

الطريقُ من تعز إلى صنعاء معبدةٌ.. ولكنها طويلةٌ جداً.. ولولا تلك الحدائق والـ ـمروج الخضراء والـ ـمدرجات المشحونة بالخضروات وأشجار الفاكهة والخمائل الظليلة لكانت رحلةً أشبه برحلة الموت البطيء.. كنا نرتفع حتى أعالي القمم فنشاهد المدن والقرى من تحتنا كأنها الدُّمَى.. والأوديةَ كأنها خيوطُ الصُّوفِ المفتولِ بلونٍ أخضرَ جَذّابٍ.. بينما تَكْتَنفُنا السُّحُبُ وتغمرنا البرودة الشديدة حتى كأننا في غرفةٍ عاليةِ التكييف.. نتحاشى أحياناً أن نرسل البصر إلى الأسفل.. إذ كان الفرد يشعرُ بالدُّوارِ كلـ ـما أَطَلَّ من نافذة السيارة ليشاهد المنحدرات والأودية في تلك الجبال الشاهقة.. يسقط الفؤاد ويسرع بالقلق إلى السطح فلا تسمع إلا هَمْهَماتٍ وتَنَحْنُحاتٍ وصوتاً جنائزياً من ماكينة السيارة التي تَئِنُّ من ثِقَلِ الحركة على هذا المحيط الصخريِّ الجامد .

كنا أكثر من ثـ ـمانية أفراد..بيننا امرأتان مسافرتان إلى الحج.. إحداهما ثرثارةٌ أكثر مما ينبغي أن تكونَ عليه امرأةٌ.. والأخرى عجوزٌ.. أَكَلَ الدَّهْرُ عليها وشَرِب.. ولكنها تتحدى الزمن والشباب.. تُغَنيّ بملْءِ صوتها.. وتُحَمْلِقُ بعينيها.. فرحةٌ بنفسها أو بحياتها

أكثرَ من فرحي بحياتي وبنفسي !! مسافةُ السِّنِّ العُمْرِيّ بيننا متباعدةٌ جداً.. ولكنها أصغرُ مني سِنّاً وبالملموس.. إنها عجوزٌ مرحةٌ وخفيفةُ الظل.. أخذتْ قسطاً من اهتماماتي خلال الرحلة.. إذ كنتُ أتساءلُ مع نفسي عن مثل هذه التصرفات ودوافعها ؟؟ بإمكانِ فنانٍ مُبْدِعٍ أن يتخذَ منها مادةً حيةً لتصوير حقيقة الحياة التي نَأْنَسُ إليها عبر مراحل تطورنا العمري والعقلي.. إنها لا تملك حتى سِنّاً واحدة.. تجاعيدُ وجهها ويديها أضحتْ بارزةً تتحدثُ عن عمرها بأوضحِ بيانٍ.. سَلَبَها الزمن الطويل قدرةَ الإبصار وقوةَ التفكير.. تصمتُ طويلاً حتى يقول بعض الركاب : إنها قد ماتَتْ.. وتتحدث وتضحك وكأنها بنت العشرين.. تغني أغنياتِ الحب والغرام وكأنما هي تعيشُ مغامرةً عاطفيةً عنيفةً.. تحفظ من الأشعار الغرامية رصيداً كبيراً.. وبين الفَينَةِ والفَينَةِ قد يُثيرها أحدُ الركاب بكلمةٍ أو سؤالٍ فترسل الأشعار من فَمِها القاحلِ ثم تُتْبِعُهُ بآهَةٍ حَرّاءَ كأنها تستعيد أحلى الذكريات .

لقد كانت سبباً هاماً في حيوية ونشاط أفراد الرحلة.. هذه العجوز الشمطاء فرحةٌ بالدنيا وهي على أبواب القبر.. وأنا في مقتبلِ العمر أكرهُ الدنيا وما عليها.. يركبني الهمُّ والقَلَقُ أكثرَ مما يُداخلني السرور.. أتُرى أنَّ جهلها بمصير الإنسان عاملٌ هامٌّ في برود أحساسيسها وارتياح ضميرها ؟؟ أم هي امرأةٌ امتلكتْ أسباب التحدي والصبر حتى لعناصر الفناء فجعلها تبتسم للحياة رغم قسوتها ؟؟ هل هي تُدْرِكُ مصيرَها القريب فانطلقتْ تنهش في جدار عمرها الباقي لِتُرِيحَ وترتاح ؟؟ أم هي تخفي حسرةً وانهزاماً وتبرُّماً معجوناً في قوالبَ من المرح المصَنَّع ؟؟

أراها تصرخ بالسائق لِيُسرعَ في الانطلاق حتى ليكادَ بسببها أن يَقْصِمَ عظامنا.. تأكل القات.. وتدخن السيجار.. وتطلب من الأكل شيئاً كثيراً كلما وقفنا للراحة بعض الوقت.. أنا لا أستطيع أن أُضِيفَ على وجبة الغداء وجبةَ العشاء في حينها فضلاً عن الأكل بين الفينة والأخرى.. وتلك تلتهم الأكلَ في شهيَّةٍ عجيبة ! شيءٌ غريبٌ!!

ولعل الأغرب من ذلك رفيقتها الأخرى.. امرأةٌ جاوزتِ الأربعينَ كما يبدو من ملامح وجهها المكشوف.. ثرثارةٌ.. سَلِيطَةُ اللسان.. لا تَنْفَكُّ من إرسالِ سَيلِ الشتائمِ واللعناتِ كل ما سمعتِ العجوزَ تطلب منها شيئاً.. تنهالُ عليها بعباراتِ السخريةِ والاستهزاء والقذفِ بشتى أشكاله وألوانه.. حتى كنت أشعرُ بالتَّقَزُّزِ من فظاعةِ عباراتِ لسانها.. جَهُورِيَّة الصوت.. لا تستطيع التحدَّث بهدوءٍ حتى عندما تتحدث مع الركاب.. صوتُها يَخْرِسُ كلَّ الأصوات.. ومع ذلك فهُما رفيقتانِ إلى حجٍّ بيتِ اللّه الحرام !!!

لستُ أدري أيُّ حجٍّ ستَنْعَمانِ به على مِثلِ هذه الصورة ؟! ولستُ أدري أيُّ حياةٍ ستَعِيشانِها بهذا التنافر البَشِع ؟! هذه الثرثارةُ الصغرى منذ أن خرجنا من مدينة تعز وهي تمضغ القاتَ وتدخِّن السيجارة تِلْوَ السيجارة.. ثم تنفثُه دوائرَ كبيرةً وصغيرةً وفي كلِّ الاتجاهات ! كانتْ تجلس خلفي فتخنُقني برائحة الدخان .

هَمَمْتُ أَنْ أَطلُبَ منها إبعادَ نفثها ؛ ولكني خشيتُ على نفسي.. فلربما فتحتُ على نفسي باباً لن يُغلق إلى يوم البعث والنشور.. وخيرٌ لي أن أصبرَ على دخان السيجارة.. ولا أن أسمعَ سَلاطَةَ لسانها البَتّار .

هناك راكبٌ آخرُ دائمُ المرح والضحك.. يُشَكِّلُ الدِّعامةَ الثالثة معهما.. يوزِّعُ نفسَه بين العجوز ورفيقتها وبين الركاب والسائق.. ولا يكاد السائق أن يسكتَ قليلاً حتى يفتحَ له باباً من القَولِ مع العجوز أو مع رفيقتها أو مع أحد الركاب.. أو يروي قصةً أو يَسْرُدَ خبراً أو يقلِّدَ حيواناً من الحيوانات !

لقد حوَّل هؤلاءِ الرُّفقةُ سيارتَنا إلى نادٍ مَرِح ! ولولا تلك المراكز العسكرية التي كانت تمحو كلَّ مَرَحٍ وفَرَحٍ لكنا حَقّاً سُعداءَ بمعنى الكلمة المعبرِّة.. لقد كنتُ أنا ورفيقي « السَّهل » في هذا الزِّحام المرح نستعرضُ حياتَنا.. أخبارنا.. أحوالنا.. آلامنا.. آمالنا.. ونتقصى الأسباب والمسببات والدوافع والنتائج وأحوال الوطن

وأخبار الأهل والأصدقاء.. وقد يقطع استرسالنا حوارٌ نشترك فيه مع المجموعة أو نضحك معهم لطرفة ناجحة.. أو تَصَرُّف مُضْحِكٍ من العجوز.. وفي حالاتٍ أخرى كنا ننسى كلَّ شيءٍ لنقرأ آياتِ اللّه تعالى للحفظ والسلامة ونتمنى أن تنتهيَ رحلتنا على خيرِ ما يُرام.. إننا لسنا كالرفاق القابعين على السيارة.. وإنما نحن نسير معهم على كفِّ القَدَر.

الطريقُ من تعز إلى صنعاء ممتلئةٌ بعدد من النقاط المخصصة للتفتيش.. ومن مَهَمّاتِهِمُ البحثُ عمَّن يُغادر الوطنَ دونَ تصريحٍ أو مَن يكون تحت السن القانونية للحج.. الأيامُ أيامُ إعدادٍ لموسم الحج.. وهناك كثيرٌ من الشباب يسافرون بجوازاتِ حجٍّ مزوَّرةٍ أو يغادرون بطرقٍ ملتويةٍ قبل بلوغ السن القانونية للحج.. لقد أصبحتِ المفاهيمُ الدينيةُ في عصرنا أقلَّ تقنيناً للسلوك والآداب.. وذلك لانعدامها في الخاصة والعامة إلا مَن رَحِمَ اللّه .

ولذلك لابد من مجاراة الفوارق العصرية في اتخاذ هذه القوانين المحدِّدة تقسيمَ البشر بعد أن قَسَّمَتْ لهم مبادئَهم وأفكارَهم ومنطلقاتِ طموحهم وآمالهم ، والحدود تمثل الهيكل الرسمي في كل مجتمع ، واختراقها دون إذن الهياكل ومُمَثِّليها يُعَدُّ خَرْقاً للقوانين إن لم يُعَدَّ في أعلى درجاتِ المؤاخَذةِ خيانةً عظمى.. والخيانةُ في المفهوم المعاصر لها معانٍ عديدةٌ ووجوهٌ متنوعةٌ.. وقد يَقِفُ فردٌ مثلي ليس له من الأمر غيرَ أن يكتب لذاته فيقول : أين هي الخيانةُ العظمى حَقّاً ؟ أهي لِفَرْدٍ لا يملك حتى ما يملأ بطنه ؟ أم هي من الوظائف الرسمية للّهياكل المتداعية على التقسيمات الوهمية ؟ يا لَلْعَجَبِ العُجاب !

كان معي في جيبي تصريحٌ بالسفر إلى الحجاز.. ولكنه تصريحٌ من نوعٍ خاصٍّ يتلاءمُ مع حقائق السلوك المتبع ضمن الدوائر الهيكلية.. قيل لي : إنه تصريحٌ يحتاج إلى شيءٍ من ضبط النفس والأعصاب.. كما يحتاج إلى الاحتفاظ بمخزونٍ كافٍ من

المعلومات الهامة التي تجرعتُها من لسانِ زميلي لأَصُبَّها مرتبةً على كلٍّ من يسألني عن هُوِيَّتي في مواقعِ التفتيش القادمة.. إذن - والحالُ كذلك - فلابد من مراجعة المعلومات عبر خطوط الذاكرة بين الحين والآخر.. فلربما سَقَطَتْ منها عبارةٌ أو جملةٌ تكونُ سبباً في إعادة النظر عموماً لشخصيتي أمام ممثلي المخارج والمداخل اللفظية والحركية .

حَلَّ الظلامُ ونحن لازلنا على مرتفعات الطريق المؤدي إلى العاصمة صنعاء.. لازال أمامنا من الوقتِ الكثيرُ حتى نَبْلُغَها.. ولكنَّ الليل قد أَسْدَلَ خيوطَه على جَمَالِ الموجودات.. فلم نعد نشاهد المناظر الخلابة.. لقد تمتعنا قبل حلول الظلام برؤيةِ مدنٍ وقرى كثيرة كالقاعدة والرّيدة وكِتاف وإِبّ وذَمار وقُرَيّاتٍ أخرى تمتد على السفوح والمرتفعات الخضراء.. مع غروب الشمس كان المنظرُ بديعاً وخلاباً.. أما الآن فلم يعد لنا غير التمتع برؤية المصابيح الكهربائية الممتدة على أفق البصر في المدن والقرى.. أو أن نضع أيدينا على وجوهنا نتقي أشعة السيارات القادمة بين تعليقات الركاب وثرثرة النساء .



لابد من صنعا وإن طال السفر..

خَفَّضَ السائقُ سرعةَ السيارة.. فقد أصبحنا نشاهد أضواء مدينة صنعاء.. مدينة التاريخ المجيد والحضارة الزاهية.. هاهي نقطة التفتيش الأخيرة قبل الدخول إلى المدينة.. حَدَّقَ الجنديُّ في السيارة.. وتفحص الشارة المعلقة على لوحة التعريف بمقدمة السيارة.. ثم أشار إلى السائق أن يخرج بسيارته إلى جانب الطريق للتفتيش.. لم يتحرك السائق من مكانه حتى جاء ضابطٌ آخرُ يلبس ملابس مدنية.. أطلَّ على

الركاب وسأل عن هويتهم.. فعرض عليه السائق البطاقات التي كان قد أخذها من جميع الركاب.. لم يقتنع الضابط بالمحاورة التي جرت بينه وبين السائق فأمره أن يخرج بسيارته على جانب الطريق بينما ذهب هو إلى مكتبه في خيمة عسكرية قريبة بعض الوقت ثم عاد .

أخذ القلقُ يتسرب إلى الجميع لما حصل.. فالسائق مع كثرة انفعاله قال : إن هذا التصرف لم يسبق له مثيل معه.. وقد تكرر مروره بذات السيارة هنا.. أخذ الضابط يسأل السائق عن هوية السيارة والرقم العسكري الذي تحمله.. بينما كنت ورفيقي «السهل» نستحضر ما نحفظه من الآيات والأوراد.. وكانت دقائقَ عصيبةً إلى أن قال الضابط للسائق :

- سنذهب معاً إلى [الداخلية] .

- **إلى الداخلية ؟!**

هبطتْ درجةُ الحرارة.. وبدأ الارتباكُ والحيرةُ يغزو الجميع.. كان الضابطُ رابطَ الجأش.. قويَّ الشكيمة.. وله رتبةٌ ذاتُ اعتبار.. فلم يفعل السائقُ شيئاً أكثرَ من الموافقة على الذهاب إلى الداخلية.. انطلقت سيارتنا تقفو أَثَرَ سيارةٍ مدنية حمراء تحمل رقماً مدنياً ويسوقها ضابطٌ يلبس لباساً مدنياً عبر الطريقِ الرئيسِ نحو مدينة صنعاء.. لقد كانت لي رغبةٌ جامحةٌ في التعرف على بعض معالم هذه المدينة الشامخة في صفحة التاريخ.. ولكن الرغبةَ اضمحلَّتْ وتلاشتْ.. ضاقت الرؤية وتشنَّجت الأعصاب وذهب التفكير كلَّ مذهب.. وحدَّقت الأبصار والبصائر إلى حيث انطلقت سيارة المخابرات أمامنا.. فلعله نهاية المطاف.. من يدري ؟! ربما كان هذا قَدَرُنا.. ويتشعب التفكير ثم يتجمع من كل طريقٍ حتى يكاد أن يُفَجِّرَ الإحساس.. لا قيمة لما في المحيط من جلال وجمال إذا انعدم الأمن في قلب الإنسان.. كل المتعة في الأمن والأمان.

دخلت السيارة شوارع صنعاء.. كل شيء يبدو مظل ـماً رغم وَهْجِ الإضاءة.. وأرى كل ما حولي مشوَّهاً رغم أن المدينة لا زالت عليها آثار الاحتفال بأعياد سبت ـمبر.. ل ـم أعد في حاجة إلى النظر في أفراح الآخرين.. أصبح الخوف في جوفي أعظم من كل أمن يمتلكه المحتفلون بأعيادهم..وقفت السيارة الحمراء بجوار مبنى فخم وكبير.. ونزل الضابط يشير على سيارتنا بالتوقف في زاوية محددة.. نزل السائق وذهبا معا إلى داخل المبنى.. بدأ الجميع يتهامسون :

– يا لل ـمصيبة.. ما هذا النحس!.. ل ـم يسبق لنا أن حصل مثل هذا الإجراء.. إنها إهانة لنا.. سيارتنا اعتادت أن ت ـمر دون تفتيش.. لاشك أن هذا الضابطَ جديدٌ في منصبه .

كنتُ خلال هذا الحوار المتناقض استحضر المعلومات من جديد.. فلربما احتَجْتُ لها هذه المرة.. **فالأمر يبدو خطيراً**.. ويترسب في قاع ذهني إحساسٌ بفشل هذه الحُزُم القولية التي حفظتها عن ظهرِ قلبٍ جُمَلاً اعتراضيةً لا يألفُها عقلي ولا طبعي ولا تركيبي الداخلي.. ولكنها كما يقولون « شَرٌّ لابد منه » .

ومع ذلك فالحقيقة التي تكتسح الجذور الوهمية دائماً في مثل هذه الظروف { للّه الأمرُ مِنْ قَبلُ ومِنْ بَعْدُ }.. وبين التوجس والاستسلام للقضاء كان صوت المرأة الثرثارة يزيد عوامل القلق والتوتر في الركاب.. فهي تصرخ على الضابط بالشتائم واللعنات.. والخشيةُ كلُّ الخشيةِ لو وَصَلَ الهذيان إلى مَسْمَعِه فماذا يكون من الأمر ؟ وخرج السائق من المبنى فجأةً بعد فترة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة.. وصمت الجميع صمتاً مفاجئاً حتى كأن ل ـم يَعُدْ أحدٌ في السيارة غيرُ السُّكُون.. دقَّ قلبي دقَّةً كبرى أحسستُ بها في كلِّ أوصالي.. وكأني سأَسْتَل ـم فؤادي بيدي.. وتطلعتُ إلى الباب.. صافح الضابط السائق في أسلوبٍ رقيقٍ وابتسامةٍ هادئةٍ ، ووَدَّعَهُ بِبضْعِ كَل ـماتٍ رقيقةٍ .

عاد لنا الاطمئنان من جديد.. واختلط في برزخ الإحساس تضارُبٌ غريبٌ من تناقض المواقف.. وانطلقت بنا سيارتنا من جديدٍ في شوارع العاصمة صنعاء ونحن واجمون.. لا أحدَ يتحدث.. وانفجر السائق فجأةً بالشتائم على ذلك الضابط الأرعن وعلى البلاد ومن عليها والظروف التي أدت به إلى هذا الحال المهِين.. وفجأةً أشار رجلُ المرور على السيارة بالوقوف.. كان هناك مفترقُ طرقٍ والجنود يقفون عادةً في هذه المواقع.. سألوه عن هُوِّيَّةِ السيارة.. ولم يحتمل السائق الحديث.. بل انفجر يصرخُ على الجندي يحدثه بما حدث لنا من قبل.. ولكن الجندي لم يتأثر بذلك.. وإنما أصرَّ على إثبات هوية السيارة..أخرج السائق بطاقته ونزل يحادث رجل المرور بهدوءٍ وتَلَطُّفٍ حتى سمح لنا بالاستمرار في الرحلة بعد أن عرف هوية السائق ووجهته .

لقد تَغَيَّرَ جَوُّ الرحلة وتعكَّرَتْ موازينُ التقدير منذ بلوغنا أطرافَ مدينة صنعاء.. لم نعرِفِ السعادةَ المألوفة.. وتَبَخَّرَ جَوُّ المرَحِ والضحكِ والسخريات.. حتى العجوز لم يظهر لها خلالَ هذه المدة صوتٌ.. وكأنما هي الشيطان بعينه يهرب عند الخطر.. ساد السيارةَ في رحلتها المستأنَفةِ صمتٌ مُطْبِقٌ وكلٌّ يسرحُ في رحلةِ محاسبةٍ داخليةٍ مع ذاته.. لقد حمل الظلام إلينا كل أَوْبِئَتِهِ.. وما أن جاوزنا حدود العاصمة حتى تحدث السائق عن الصعوبات الجديدة التي قد نواجهها خلال الرحلة من صنعاء إلى صعدة.. كان حديثه يعبر عن قلقٍ انتابَ إحساسه من معاملةِ الجنود في نقطة التفتيش.. وهاهو يخفِّفُ عن نفسه بعض هذا الإحساس تَحَسُّباً للمستقبل وتَهْيِئَةً نفسيةً لقلوبنا على طريق المجهول :

[illegible]..

[illegible]..

[illegible]..

[illegible]..

[illegible]..

وصمتنا صمتَ الموت حتى لم نعد نسمع سوى غطيط العجوز وهدير السيارات الذاهبة والآيبة وأنين سيارتنا المتصل على الطريق المعبد.. كان السائق يخفف السرعة

كل ما أوشكنا على الاقتراب من نقطة تفتيش.. ويفتح السائق الأضواء كاملة في داخل السيارة ويتحدث مع الجندي المناوب بلطف.. ويعرض عليه البطاقات ثم يستأنف الرحلة ويطفئ الأنوار الداخلية.. وهكذا جاوزنا النقاط الخمس دون استفزازٍ ولا أذىً.. ولكنَّ التوجسَ والحذرَ كان كافياً لإسكاتنا طيلة هذه المدة..ولم نشعر بالاطمئنان والفرح إلا بعد أن قال لنا السائق :

- هذه مدينة صَعْدَة .

تغيَّر كلُّ شيء.. وبدأتِ الحياةُ الآمنةُ تَدُبُّ في الركب من جديد.. وظهرت أصوات الركاب من جوانب السيارة يتحدثون عن صنعاء ونحسها وعما حصل فيها من مواقف.. وأخذ السائق يشرح موقفَه في وزارة الداخلية والتقاءَه بالوزير ثم كيف سمح له باستئناف الرحلة دونما استفسار.. حقاً لقد كان موقفاً مشرفاً رغم ما حصل.

هذه هي صَعْدَة.. مدينةٌ أثريةٌ تقع في مُنْبَسَطٍ من الأرض.. هكذا بدت لنا في ذلك الوقت المتأخر من الليل.. ولكنا لم نتعرف على كل مظاهرها في الظلام.. لقد شغلتنا أصوات الباعة في المقاهي ينادوننا بصوت واحد.. كلُّ مقهًى عُمّالُه ينادون أمام الأبواب.. إنه شيءٌ مضحكٌ ومثيرٌ للعجب.. ولكن صاحبنا شق طريقه وسط الهُتافات الأنانية العكسية وكأنه يعرف أين تقف سيارته.. وقفت السيارة أمام مبنى صغير كتب عليه بخط رديء « الفندق الكبير » .. قاعةٌ كبيرة امتلأت بالكراسي والطاولات.. جلس كل جماعة منا في ركن من أركانها.. وتناولنا عشاءً بسيطاً ثم صعدنا إلى الفندق كما يسمونه.. حَشْدٌ من السُّرُرِ الحديدية عليها فرش من الإسفنج وبطانيات ملونة.. اختار كل واحد منا مكانه في الحشد المترامي.. ونام الجميع حتى الصباح .



في الطريق إلى « البُقع »..

- هذه هي نهاية الطريق المعبدة..

- لابد من السير على طريق رملي ووعر المسالك حتى نعبر الحدود السعودية..

هكذا قال لنا السائق وهو يودع تلك المدينة التي دخلناها في الظلام وأهلنا نائمون.. وخرجنا منها قبل استيقاظهم إلا الأعداد القليلة من البدو والباعة.. مدينة صعدة عليها آثار الماضي بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. وحتى آثار الحضارة المتمثلة بالبنيان والوسائل المنوعة للنقل.. وحركةُ التجارة مأسورةٌ كلَّ الأَسْرِ في أسوار الماضي وجدران الموروثات.. متمثلةً في المواطن والأبنية وتصميماتها والأسلوب المتبع في يوميات الحياة العامة والخاصة وفي اللباس ومظاهر العلاقات.. هذا ما بدا لي خلال إشراقة الصباح والركب يحتشد في السيارة على الطريق المؤدي إلى الحدود السعودية.. عادت بي الذاكرة إلى قريتي الهادئة « أحور » .. لقد كنا نعاني من مَشَقّات مماثلةٍ في الوصول إليها أو الخروج عنها.. كنا نشعر بالإرهاق.. وبمجرد أن نصل إلى المترل نخلد إلى الراحة هناك .

ولا شك أن هناك فارقاً كبيراً بين الأمس واليوم.. لقد حقق الإنسان لنفسه إنجازاً ضخماً بوسائل العلم الحضارية.. ويبدو للمرء قيمة المقارنة بين الأحوال عند العود إلى نماذج الماضي المنتشرة في مبسوط الأرض البشرية.. ولكل موقع من الأرض حكمٌ وحالٌ وأسلوبٌ.. فالعواصم تختلف عن غيرها من المدن الأخرى.. والمدن أيسر حالاً من القرى.. والقرى تتهيأ فيها أسبابٌ أكثرَ تطوراً من حياة البادية .

ولكل موقع من هذه المواقع عُشّاقٌ وراغبون.. وقد يحصل العكس في الرغبات.. فينطلق المرء من البادية إلى القرية.. ومن القرية إلى المدينة.. ومن المدينة إلى العاصمة.. ومع كل ارتفاعٍ رغبةٌ في طموح أو ارتفاع في مثله.. وينعكس الحال من العاصمة إلى المدينة إلى القرية إلى البادية بانعكاس الأحوال .

وليست قاعدةً.. هانحن في نموذج من نماذج البدائية.. في مبسوط الصحراء سيارة حديثة تـ ـمخر عباب القاحل المتراكم لتتحدى الماضي وتبرهن على قوة وسائل الحاضر.. لـ ـم نعد كما كنا البارحة.. لقد عاد المرح إلى رفاق الرحلة أكثر مما كانوا عليه بالأمس.. فمنذ أن امتلأت البطون في فندق صعدة تحركت الألسن ونشطت الأفكار.. وحتى الأسطوانة العجوز دارت دورتها ونطقت مع بزوغ الصباح الباكر.. هاهي تغني بصوت مرتفع.. والسائق يمرح مع صديقه المهرج القابع في آخر السيارة.. والسيارة تتـ ـمايل ذات اليمين وذات الشمال فتُقَلِّبُ الأفئدةَ وتُحَرِّكُ الأجسادَ وتُبَعْثِرُ السكون.. ولعلها طَرِبَتْ لصوت العجوز المغنِّيَة.. الانسجام يشمل الجميع.. وتلك ظاهرةٌ نفسيةٌ قد تحصل عادةً بسقوط حواجز الكلفة بين الأفراد.. وقد لا يكون في حالنا هذا انجسامٌ بمعناه الكلي ؛ ولكنه يحمل هذا المعنى من حيث الرضا الداخلي لدى المجموعة بتصرفات بعضهم البعض.. ولكلٍّ بعد ذلك موقفه الخاص من حيث المشاركة وعدمها.

نعم ؛ لقد كان جو الرضا والانسجام القلبي مشتركاً بين الجميع.. وذاك من أهم العوامل التي ساعدتنا على طَيِّ الفارق الزمني على الأرض الترابية الوعرة.. فالساحة تلحق الساعة.. والطريق تنطوي تحت عجلات السيارة الزرقاء.. لقد التقت أبصارنا منذ مغادرتنا لـ ـمدينة صعدة بأرض صحرواية رملية أو مرتفعات جبلية صغيرة تتخلّلها أوديةٌ وسَواقٍ تنبتُ إلى جوانبها شجيراتٌ متفرقة.. إنها مفارقاتٌ بَيِّنَةٌ حتى على مستوى توزيع البهجة والخضرة.. هناك الخضرة وبرودة الجو والجمال المبدع الخلاب على الطريق الطويل من تعز إلى العاصمة صنعاء مع شيءٍ من الخوف والوجل والترقب.. وهنا الصخور والأرض الترابية المجدبة والأشجار الشوكية والصحراء القاحلة مع شيءٍ من الاطمئنان .

حَقّاً ما قيل : « إن الحياة مهما كَمُلَتْ سعادتُها تَظَلُّ حَلَقَةٌ منها مفقودةً ، ومهما اشتدتْ شقاوتُها فالنجاةُ والفَرَجَ يَقينيات مَوعُودَةٌ » .. والإنسان مخلوقٌ يملك القدرة على التكيف حسب الظروف المحيطة لكونه يقهرها بالوسائل.. ولا يوجد مخلوق غيره يملك هذه القدرات في عالم التسخير الأرضي.. صادَفَنا في طريقنا عددٌ من السيارات الكبيرة والصغيرة.. منها ما هو متجه معنا على ذات الطريق ومنها ما هو داخل إلى شمال الوطن يحمل بضائع مختلفة ومسافرين.. وقفنا في طريقنا مرات عديدةً طلباً للراحة وكسراً لحاجزِ الرتابة المألوف في نظام السير ، ولشرب الماء أو لإفراغه.. ونواصل الرحلة مرة أخرى.

مررنا على قُرَيّاتٍ مختلفةٍ وشاهدنا بعض الملامح الغريبة في اللباس والهندام وهندسة البناء.. وكلما توغلنا في عمق الطريق يظهر لنا شجر النخيل وشمول جزئي من الخضرة والزرع في شبه واحات متفرقة وعلى جوانب الأودية بنيت في مواقع متفرقة.. بيوت مدورة البنيان تشبه القلاع القديمة.. ثم دخلنا قرية صغيرة كانت أكثر بيوتها على هيئة التدوير مبنية من الطين وتزخرف جوانبها بزخارفَ من ذات الطينة.. بارزةٍ كلَّ البروز على الحيطان والنوافذ.. وبيوت أخرى في قرى متفرقة بنيت من الصفيح اللماع والزنك .

واعترتني الدهشة لما أَنْ رأيتُ عدداً من الناس يتخذونها بيوتاً سكنيةً دائمةً ! لعلهم فقراءُ لا يملكون غير هذا الصفيح العاكس للحرارة.. أو لعلها طبيعة الأرض تحتم عليهم ذلك لبرودتها.. أو لربما اختيرت دون غيرها من وسائل السكنى لقوة جدرانها وعدم تأثرها بالمطر.. لكنها صفيح حار وغير مصمم لهذا الغرض.. بإمكانهم استخدام الأخشاب أو الخيم الكبيرة.. ربما يخشون الحرائق وخاصةً في جوٍّ قَبَلِيٍّ كهذا.. لا يأمنون غائلةَ البدو من قطاع الطرق واللصوص الذين لا يُفرِّقون بين

الآمنِ والخائف والغني الفقير ؟! وقد تَنْشَبُ حروبٌ قَبَلِيَّةٌ تأتي على كل شيء.. وهذا ما استنتجته من حوار أحد الركاب ولكن لـ ـم يستقر في ذهني بحجة معقولة .

وأغربُ ما شاهدتُه في هذا الطريق الريفي المترامي تجمُّعٌ سكنيٌّ لبعض اليهود.. قيل لنا : إنهم من قدماء اليهود المتناسلين على هذه الأرض.. يمتازون عن غيرهم من أهل القرية ومجاوريها بإسدال شعر أصداغهم إسدالاً بينا.. ولكنهم يتحدثون بلهجة يمنية ويلبسون اللباس التقليدي.. ولا يكاد المتأمل تـ ـمييزهم عن المواطن اليمني المسلـ ـم إلا بما ذكرناه من يسير المبايَنات .



من ((**الوزف**)) **إلى** ((**السرجين**)) ..

- هذه هي ((البُقْع)).

كان يحدثني الرفيق ((السهل)) .. إنه آخرُ موقعٍ يمنيٍّ في الخريطة المعاصرة.. ينتقل المسافر بعده إلى الحدود السعودية.. لابد لنا من التوقف في هذا المجمع المزدحم.. بيوت متناثرة.. كلها بـ ـنـ ـيت وشيدت من صفائح الزنك وتزدحم حولها السيارات الواقفة والـ ـمتحركة من كل حجم ونوع.. وبها من البشر ما لا يُتَصَوَّرُ وجودُه في قرية صغيرة.. إنها منطقة التقاء يتجمع فيها المسافرون من أماكن شتى من اليمن.. من الوادي ومن القرى المجاورة..

وهو مجمعٌ لا توجد فيه صفة رسمية أو هيئة حكومية ذات اعتبار.. وقفتْ بنا السيارة أمام مقهى صغير تـ ـملكه امرأة وتوزع وتطبخ وتلبي طلبات الزبائن ومعها خدم وموظفون.. يظهر لنا أن سائق السيارة يأنس إلى هذا الموقع فاختاره لنا موقعاً نأكل فيه .

قُدِّمَ لنا أكلٌ نظيفٌ.. لحمٌ وأرزٌّ وتوابلُ كثيرةٌ.. ثـم خلدنا إلى غرفة جانبية لنرتاح.. كان هَمِّي مشغولاً في هذه الغرفة المعدنية بمدافعة الحرارة الشديدة التي تعكسها جدران المبنى الصغير.. ولذلك لـم يَرُقْ لي النومُ ولـم أَجِدْ راحةً في البقاء .

وحان وقت العصر..

قال لي رفيقي : **– نحن وإياك سنبقى هنا في البُقع.. لن نستطيع الدخول إلى نجران اليوم.. إلا بعد تدبير الأمر مع جهات الاختصاص.. ليكون الدخول رسمياً وأكثرَ شرعيةً.**

وافقتُ بالطبع على الفكرة.. حيث لا أملكُ خيارا آخر.. بل لا أدري بذاتي كيف بدأتُ ولا كيف أنتهي.. فالـموافقة من بديهيات الحال.. ورتب « السهل » الأمرَ مع سائق السيارة قبل مغادرتهم هذا الموقع الغريب المريب.. وخرجتُ مع « السهل » من مقهى المرأة إلى حيث يمكن لنا أن نستقر إلى أن يقضيَ اللّه أمراً كان مفعولا.. اختار زميلي مقهى آخر لـمواطن من جنوب اليمن كان « السَّهلُ » قد عرفه في رحلة سابقة.. دلفنا إلى المقهى وأعد لنا جانبا من جوانبه للجلوس.. وبالطبع كان المقهى مدخلاً ومخرجاً للعشرات من الناس.. ويُعَرِّجُ بعضهم إلى ناحيتنا يجلسون للحديث والاستفسار.. كان أغلبُ مَن يجلس معنا قادماً من السعودية يسأل عن أخ له أو قريب رمتهم الأقدار على طريق الخروج من الوطن إلى هذا الموقع الشامل.. التقينا بعدد من المواطنين من جنوب الوطن .. ودار حديثٌ طويلٌ ومؤلـم.. و« الطيور على أشكالها تقع » .

تسعةٌ من الشباب طردوا من حدود السعودية بعد أن دخلوا إليها بصورة غير مشروعة.. لا يملكون شيئاً غير الحديث والثياب التي عليهم.. قال أحدهم :

– كل ما لدينا أنفقناه في الوسائل الفاشلة لبلوغنا إلى حدود السعودية .

وكان الحذر من كافة الأطراف يشوب الحديث ويعرقل استمراره.. وجاءت جماعة أخرى عرفنا منهم أنهم قادمون من جنوب الوطن.. تجاوزاً للحدود في طريقهم إلى المملكة.. وكنا نصمتُ إذا تكلموا ولا نُبدي رأياً قاطعاً.. حيث إنّا من الداخل غيرُ مطمئنين لكل إنسان..

وكأن البعض من هؤلاء أَنِسَ إلى حديث صاحبي ومُحَيّاه.. فطال بهم الحديث على هيئةٍ حوارٍ متبادلٍ.. فبدا بعد حين أن الجميع حقا قد خرجوا من دائرة الشك إلى دائرة اليقين.. وأن بإمكانهم وبإمكاننا أن نتحدث كما نريد دون خوف أو حذر .

إن الحديث بالطبع هنا لن يكون تناولاً لأحد من الناس أو الأنظمة.. ولكنه حديثٌ عن المغامرات الشخصية على طريق تجاوز القوانين حتى بلوغ المجمع المفتوح.. وحديثٌ مثل هذا يكشف للبعض جوانبَ غامضةً عن هوية المتكلم.. والمستمع في العادة رجلٌ مجهولٌ الهوية والوظيفة ، ومَن يدري ؟

إن أغرب شيء في هذا الموقع الصغير هو ارتفاع الأسعار وإلى درجة تكاد أن تكون خيالية.. علبة الماء المعلب بسبعة ريالات يمنية !! والوجبة العادية بـ ٣٠ ريالاً يمنياً !! هذا شيءٌ لم نعرفه في حساباتنا السالفة حتى في مدينة عدن .

والأغرب من ذلك أن بإمكانك أن تَنْقُدَ صاحب المطعم أيّاً من العملات اليمنية أو السعودية.. فالمطعم موقع للطعام وصرف العملات.. واعتقدتُ أن بالإمكان الحصول على بئرٍ يشرب منها أو يغتسل بها.. وبلغ العجب مبلغه عندما عرفتُ أنه لا يوجد في هذه البقعة قطرةُ ماءٍ غير ما تنقله السيارات عبر الصحراء من قرية بعيدة وبثمن باهظ..

إنه موقعٌ تجاريٌّ ناهبٌ للعمال بالضرورة.. جُلْتُ في البُقع مع زميلي قليلاً ثم عدنا إلى حيث وَضَعنا أَمْتِعتنا فالموقع غير مأمون.. وزاد من قلقي ما قصه عليّ زميلي من تجربته الأولى في هذه النقطة الملتهبة حيث أشرف على الموت الزُّؤَام.. مرتْ

فترة على وجودنا في هذه البقعة مدة تزيد على الأربع والعشرين ساعة استلـمنا خلالها تصريحاً رسمياً بالدخول إلى نجران.. شرح زميلي بعض التعليمات الضرورية لـمثلي عند نقاط الحدود لتفادي الملابسات وخشية العرقلة.. وشعرت بشيء من الرهبة من كثرة ما وصف لي عن النقطة القادمة والتي تعد الفاصل الزمني والـمكاني بين اليمن والـمملكة العربية السعودية.. فأعددتُ نفسي لامتحانٍ صعبٍ وخطيرٍ.. غادرنا البُقع مع سيارة تابعة لصاحب المقهى حيث يتعود السفر لجلب بعض متاعه وحاجاته.. وقد استطاع زميلي أن يقنعه بمصاحبتنا له في سيارته ورتب معه الأمر بسهولة ويسر كما هي عادته في مثل هذه المواقف الحرجة.. خلافاً لي.. فأنا لستُ أدري لـماذا أواجه صعوبةً بالغةً في التعرف على الآخرين ؟ بل أشعر بعدم الرضا في ذاتي . وقد أُضْطَرُّ إلى أن أحرم نفسي أموراً هامةً نتيجةً لقصور رغبتي في التعرف على الناس ؟!

لعله أثرٌ من آثار التربية.. فقد عُزِلنا عن الحياة والناس عُزْلَةً شبه تامةٍ في مراحل حياتنا الأولى.. وأشعر اللحظةَ أني لستُ بنادمٍ على شيء.. ففي قراري ارتياحٌ بالغٌ بما أنا عليه وبَلَغْتُ بالتربية المنعزلة إليه.. إنني لا أحبُّ أن أكون مَدِيناً لأحد .

قال لي صاحب السيارة :

- يجبُ أن تركب على سطح السيارة فهي صغيرة ولا يتسع مقعدها الأمامي لأكثر من ثلاثة..

السائق ورفيق له وصاحبي.. وقد كان يرجح أن بقائي على هذه الصورة جزءٌ من نجاح الفكرة.. كان سطح السيارة مكشوفاً ومشحوناً بسِرْجِين الأغنام [1] التي يجلبها للـمطعم من نجران ! واخترتُ لنفسي مكاناً على أرض السطح.. وتشبثتُ بأطراف هيكل السيارة خشية الوقوع.. وانطلَقَتِ السيارةُ في صحراءَ رمليةٍ بسرعةٍ جنونيةٍ

---

(١) السِّرجِين بكسر السين المشددة هو الروث أو السَّماد .

تطوي الميل تلو الميل.. بينما كانت الرياح القوية تثير السرجين على سطح السيارة لينتشر على أجزاء جسمي وثيابي.. ما أَشْبَهَ الليلةَ بالبارحة !! خرجتُ من مدينة عدن على ظهر سيارة مكشوفة تنبعث منها روائح السمك المجفف – وللسمك علاقة بمدينة عدن الساحلية – وهاأنذا أدخل الحدود السعودية على ظهر سيارة مكشوفة تنبعث منها روائح الأغنام البدوية ، ولا تخفى علاقة البلاد الحجازية وما جاورها بتربية الأغنام والأنعام .

ثيابي تكاد أن تُفلتَ من جسدي لكثرة حركة الريح المندفعة في الاتجاه المعاكس لحركة السيارة.. أُوَزِّعُ يديَّ بين التَّشَبُّثِ بالهيكل خشية السقوط وبين حفظ ثيابي المنتفخة بالهواء.. شرعت أقرأ آيات الحفظ والسلامة.. فالـ ـمرحلة التي أنا قادم عليها تعدُّ النهاية أو البداية .. واستعرضتُ شريط المعلومات الذي سمعتُه من زميلي حتى أتبينَ منافذ القوة والضعف فيه.. فهناك كلـ ـماتٌ ومواقعُ وأرقامٌ ومُدُنٌ وقُرًى وشخصياتٌ لابد من سردها عند الضرورة .

إنها مسألةٌ هامَّةٌ ومعقدةٌ كلَّ التعقيد في ذات الوقت ، والأعْجَبُ كونُها مغامرةً رغمَ شرعِيَّتِها القانونية.. أشار إليّ رفيقي من خلف النافذة بالاستعداد.. حيث صرنا قريباً من نقطة التفتيش.. خَفَّضَ السائقُ سرعة السيارة حتى حاذى الجنديَّ القائمَ بجوار خشبة المرور.. وأخرج بطاقات الركاب.. نظر الجندي إليها ملياً ثـ ـم أعادها إليهم.. كنت أتأملُ السائق وهو يهمس نفسه ((سِتْرَكَ يا رَبّ)) .. اتجه الجندي إليّ وطلب منيّ البطاقة.. سلـ ـمتُها له مع ورقة أخرى تـ ـمنح عند الخروج.. حاولتُ أَنْ أَبْدُوَ طبيعياً.. ورأيتُه أخذها وتأمَّلها.. ثـ ـم أعادها إلي.. وذهب ليرفع الخشبة عن الطريق..

وانفتحت الحدود.. وانهارت السدود..

شيءٌ غريبٌ للغاية !! لقد قال لي زميلي ومن معه : إن التفتيش هنا دقيق للغاية.. وهناك ضابطٌ مسؤولٌ عن التحقيق.. وفي مجمّع البُقع أعدادٌ من الشباب أُعيدوا من

هذه النقطة الحرجة.. لكننا لـم نجد من ذلك الأمر شيئاً.. هاهي سيارتنا قد انطلقت إلى داخل الحدود.. رابني الأمر من جديد !! فأنا وحدي على سطح السيارة.. ورفاقي لا يسمعون حديثي ولا أسمعهم.. لعل هناك موقعاً آخر نحن في طريقنا إليه.. وهو المعنيُّ بالانتباه والحذر .

بَدَأَتِ الفكرةُ مجرَّدَ خاطرةٍ عابرةٍ.. لكنها **استفحلتْ واستَشْرَتْ** حتى تملَّكَتْ على جوامع ذهني.. **وتصاعد الخوف إلى قلبي تصاعداً**.. شاهدتُ على جانب الطريق سيارةً ظننتُ أني شاهدتها بعينها في البُقع.. وشاهدتُها محاذيةً لنا خلال خروجنا من البقع على طريق نجران.. وهاهي الآن تقف على جانب الطريق منتظرةً دخولنا.. لاشك أن بها من يتتبع حركتنا.. لعل أحدَهم قد فَهِمَ من خلال حديثنا بالمقهى أننا من جنوب اليمن ولسنا من شماله.. ولعل عَيناً من العيون شكَّ في هويتنا منذ أن جلسنا في مجمع الوباء البشري والمادي.. البُقع .

وكدتُ **أتفجَّر** من جوانبي حيث استبدَّتْ عليَّ الخواطر استبداداً مدمِّراً.. هذا هو الطريق المعبد.. لقد افتقدنا آثارَ الإنسان الحضارية على هذا الامتداد منذ أن جاوزنا مدينة صَعْدَة قبل الأمس.. لابد أن أنتبه جيداً لهذه السيارة التي تتبعنا.. من يدري ؟ **وضاق بِيَ الأمرُ فلم أتحمَّلْ**.. قرعتُ الزجاج الفاصل بيني وبين أصحابي وأطلَّ «السَّهل» برأسه مستفسراً فأخبرتُه بخبر السيارة التي شككتُ في أمرها.. لكنه تلقى الخبر ببرودٍ غريبٍ !

وماهي إلا لحظاتٌ حتى سمعتُ من خلف الزجاج الفاصل ضحكاً ممتزجاً بسخريةٍ لاذعةٍ وتَهَكُّمٍ بَيِّنٍ وواضحٍ.. وناداني أحدهم :

- لا تخشَ شيئاً.. ما أكثرَ حركة السيارات هنا.. لا تشغل بالك.. أنت الآن على مقربة من نجران.. فاطمئن .

أمرٌ غريبٌ وعجيبٌ !! ما يقول هؤلاء ؟!؟!

يقولون : « إننا على مقربة من نجران » و« اطمئن » .. إذن فقد جاوزنا الحدود حقّاً!

وزال الخطر الموهوم.. وكأنَّ الرُّفْقَةَ أَحَسُّوا بما يجول في صدري فأوقفوا السيارة على جانب الطريق ليؤكدوا لي خبر التجاوز المبارك ، والذي قيل عنه : إنه عنايةٌ من اللّه وحظٌّ حَسَنٌ.. وكان دخولنا في وقت لا يوجد فيه المحقّق ولا المدقّق.. والحمد للّه.. { إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فيَكُون } .

***

« الخضراء » ..

- نحن الآن في « الخضراء ».. فلا خوف ولا وجل .

هكذا قال لي زميلي ونحن منتظرون بطاقات دخولنا إلى نجران بعد أن أخذها جندي الخشبة يتفحصها.. سارت بنا السيارة المكشوفة من جديد على الطريق المرصوف.. ولكن *الأحاسيس في ذاتي صارت مختلفةً كلَّ الاختلاف..*

لقد بدأت أُدركُ أن موقعي من السيارة غيرُ ملائم..

وأنه غيرُ لائق..

ولا يصلح لمثلي..

و « لماذا ركبتُ على السرجين » ؟

عندما يجدُ المرءُ الأمانَ يبدأ في إعطاء شخصيته معانيَها الوهمية.. ولكنه عند فقدانه لا يجد مكاناً لأبسط الضرورات..

وقفت السيارة في موقعٍ عامٍّ لبيع الأعلاف والحشائش.. وكان من حسن الحظ أن سيارةً أخرى كان السهل يعرف صاحبها ويعرف وجهته كانت على وشك الخروج

من ذلك الموقع.. ذهب السهل إلى السائق وأفهمه الأمر فترل الركاب الثلاثة من السيارة نحوي يُسَلمون عليّ ويسألوني عن حالي.. وكنت خجلاً من ثيابي ورائحتي وصورتي ومن ذاتي.. ولكن الحال الواقع يتغلب على كل الأمور الشكلية .

طُلِبَ مني أَنْ أركبَ في مقدمة السيارة.. واعتبرتُه **رَدَّ اعتبارٍ** وتعويضاً عن التعزير الاختياري على سطح السيارة المكشوفة الأولى.. واكتظَّ جَوُّ السيارة بالأسئلة المتنوعة والاستفسارات عن الصحة، والأهل، والأخوان، وعن الوطن، والرحلة.. وأنا أتحدثُ معهم من خلالِ فَمٍ وأَنْفٍ وعينينِ مُشبعتين بالسِّرْجِين ! وقلبٍ يخفِقُ بين الفرح والخجلِ.. وابتساماتٍ ذاتِ معنىً يُهدِيها إليَّ رفيقي بين الحين والآخر !



بركة الجمعة..

هذا هو موقع الترول الآن وبصورةٍ مؤقتة ..

قال لي زميلي وهو يشير إلى معسكر صغيرٍ أُقيم في جانب من صحراءٍ مكشوفةٍ تهبُّ عليه الرياح من كل اتجاه .

هناك مبنىً صغيرٌ دخلنا إلى ساحته المفروشة بحجارةٍ صغيرةٍ.. ثم دخلنا إلى غرفةٍ صغيرةٍ تحتوي على سريرين وأشياء مبعثرة في بعض الجوانب.. والتقيتُ بصديقٍ حميمٍ لسيدي الوالد.. رجلٍ متواضعٍ على مستوىً من الإيمان والأخلاق ودماثة السلوك.. كنت قد عرفتُه في صغري عندما كنتُ أَقْفُو أَثَرَ والدي من مكان إلى آخر..

نعم إنه ذلك الرجل المؤمن الواثق باللّه.. عليه لوائحُ الهَيبَةِ.. وسِماتُ التُّقى.. تحدَّث معي ومع صاحبي بلطفٍ بالغٍ وهدوءٍ عجيب.. ولم نتأخر في غرفته كثيراً.. فقد حان وقت صلاة الجمعة..

يا لَلْعَجَب أيضاً **!!** خرجتُ من الدائرة الحمراء ليلة **الجمعة**.. ودخلت شمال الوطن ليلةَ **الجمعة**.. وهاأنذا أدخلُ حدود الدائرة الخضراء يوم **الجمعة !** لاشك أنها رحلةٌ مباركةٌ إن شاء اللّه..

ذهبنا إلى المسجد وكان أمامنا بعض الوقت سمح لنا أن نقرأ شيئاً من القرآن بعد الركوع.. بدأ المصلون يتجمعون في مسجدهم الصغير والذي يحتوي أيضا على غرفة لتعليم الأطفال.. وخطب الإمام خطبةً لـ ـم أحفظ منها شيئاً لغَلَبَةِ النُّعاسِ وثِقَلِ الراس.. وبعد انقضاء الصلاة دلفنا إلى غرفة أُعِدَّتْ للطعام.. وكان أولَ طعامٍ رسميٍّ في حدود الدائرة الخضراء.. وخلال تناول الطعام تبادلنا أحاديثَ شَتّى..وكان من أهمها اقتراحُ المضيف أن نختارَ لقباً يمنح لصاحب الفضل في رحلتنا هذه وإنجاحها.. واتُّفِقَ على تلقيبه « بالابنِ البَارِّ » .. فهو بذلك يُعَدُّ ابناً بارّاً بحقٍّ لوالده ووالدِنا وأبِ الأجيال سيدي علي بن أبي بكر المشهور.. لقد أَدّى دَوراً كبيراً في إنجاح رحلتنا هذه.. كما كان له دورٌ من قبلُ أكثرَ خطورةً ومجازفةً في إنجاح رحلة الأخِ أحمد من الحديدة إلى مدينة نجران.. وقد تعرض خلال رحلته التأسيسية الأولى مع الأخ شهاب الدين والأخ مهدي بن محمد بن أبي بكر إلى حادثِ صِدامٍ عنيفٍ في مدينة نجران أقعده الفراش مدةً ليست بالقصيرة.. كما تعرض خلال تلك الفترة ذاتها إلى محنةٍ ماديةٍ ونفسيةٍ في مدينة نجران أَغْلَقَتْ عليه باب الدخول إلى جدة نتيجةً لإهمال بعضٍ من اعتـ ـمد عليهم في مساندته لذلك .

وكما اعتاد « السهل » أن يخلقَ لغيره نصيباً من معاني اسمه الجميل فقد صَمَدَ أمامَ عقباتِ حياته حتى ذلّلها اللّه له وحقق أمنيته بالدخول إلى مدينة جدة ومكة والـ ـمدينة.. وكان جميع الحاضرين على مائدة الغذاء ينصتون لحديثنا عن «السهل» ومغامراته وعن أخبار الرحلة العجيبة.. وما أَنْ فَرَغْنا من طعام الغذاء حتى دخلنا إلى غرفةِ مُضِيفِنا لنتناول أنواعاً من الفاكهة كانت بالنسبة لي أولَ مرةٍ أتذوَّقُ فيها عدداً

متصلاً من الفاكهة على مائدةٍ واحدة.. ومع حلول العشية صلينا العصر في جماعة ثـ ـم أقلتنا سيارة مضيفنا الخاصة إلى مدينة نجران .

✸✸✸

في ((**الصعيد**)) ..

مترلٌ هادئٌ وجميلٌ يقع في حيٍّ سكنيٍّ هادئٍ في منطقة ((الصعيد)) بمدينة نجران.. يحيطه سورٌ كبيرٌ تنتشر في حديقته شجيرات البرتقال والريحان وأعشابٌ موزعةٌ على أحواضٍ رُتِّبَتْ بعنايةٍ.. وأرضٍ ترابيةٍ فُرِشَتْ بالقرميد الملون .

– **هذه غرفتكم.. بإمكانكم أن ترتاحوا هنا.. المنزل منزلكم.. أهلاً وسهلاً..**

كانت هذه بعض عبارات الترحيب التي قدمها لنا المضيف الكريم المتواضع.. دخلنا غرفةَ استقبالٍ واسعة وجميلة ومفروشة بالقطيفة المزركشة ، يحيط بجوانبها مساندُ ووسائدُ كُيِّسَتْ بقطائفَ ذاتِ ألوانٍ مختلفةٍ.. تنسدل على النوافذ ستائرُ بيضاءُ شفافةٌ، بينما توزعتْ حولها ستائرُ أخرى ذاتُ لونٍ هادئٍ يزينُها شريطٌ في الأسفل بـ ـنـ ـي اللون.. أخذنا مواقعنا في أركان الغرفة وتخلينا عن بعض الأثقال والـ ـملابس التي نحملها.

وبدأ الإحساس بالذات يظهرُ جليّاً.. وبرزت معه الحاجة إلى الاهتـ ـمام بالـ ـمظهر.. لقد كنا طول الرحلة لا نفكر بشيء أكثر من سلامة الوصول فلـ ـم أستنكفْ أكياسَ السمك المجفف.. ولا جلوسي على أبوال الأغنام وأرواثها.. كما أنا أستنكفُ الآنَ من هذه الذكرياتِ..

الآن أستغربُ حالي المهمل وثيابي المتسخة.. بل أشعر بالخجل من نفسي وأنا بهذه الثياب المهملة المتسخة في هذا المترل الأنيق .

اغتسلتُ وغيرتُ ملابسي.. ووجدت نفسي في حاجةٍ إلى الوقوف أمام المرآة.. **وفي أعماق نفسي ابتسامةٌ ساخرةٌ من هذا الإنسان الذي يتقلب في أحواله ومزاجه ورغباته حسب محيط الظروف.. إنه الإنسان.. ما أن يشْعُرُ بالأمان حتى يملأً المكانَ صَخَباً وهذراً وجدلاً وإثباتاً لكَيانِه ووجوده ولو على حساب خوف الآخرين.. مع أن الجبنَ والقلق والخوف هو التركيب المقابل لمثل هذه الأخلاق الجبارة الظاهرة في سلوكه الطَّبْعِيّ .**

كان زميلي « السهل » منذ أن استقرَّتْ أقدامنا في هذا المترل وهو يحاول الاتصال بوالدي وبإخواني في جُدَّة عبر الهاتف.. ولكنَّ الخطوطَ مشغولةٌ.. لقد أَكَّدَ لنا حارس المترل أنه جرى بالأمس اتِّصالٌ هاتفيٌّ من جُدَّة يستفسرون فيه عَنّا.. إذن فهم لا شك على غاية من القلق لتأخر أخبارنا عنهم.. لقد مرَّ أسبوعٌ كاملٌ منذ أن غادر «السهل» مدينة جُدة حتى اليوم.. إذن لابد من تكرار الاتصال لتطمينهم بسلامة الوصول.. ولم يَسَعِ الأخَ عبدَ اللّه بنَ صالح السهل إلا أن يَتَّصِلَ بأحد الأصدقاء في جدة ليتصل بالوالد ويخبره بسلامة الوصول .

كانت أولُ جولةٍ لنا في هذا الحي الهادئ مع صلاة المغرب.. حيث اتجهنا إلى المسجد القريب للصلاة فيه.. مسجدٌ لطيفٌ ونظيفٌ وحديثُ عهدٍ ببناءٍ.. وقد رأيتُهُ يختلف تصميماً عن مساجد الوطن التي اعتدناها.. فموقع الاستنجاء والوضوء منفصل هنا تماماً عن المسجد بحيث يضمن المصلي طهارةَ المسجد من الأوساخ والقذر وبلل الماء الذي تحمله الأقدام من مواقع الوضوء.. ورأيت رقعة من الأرض عند المدخل فُرشت بالحصباء بحيث يمكن للداخل أن يَفْرُكَ قدميه عليها.. لم نصل في هذا المسجد أكثر من ثلاثة فروض.. ثم صَمَّمَ الجماعةُ بالمترل على أَنْ نُقيمَ صلاةً مستقلةً.. كان ذلك أول موضوعٍ أُباشِرُه على الواقع من مسائل الخلاف بين المذاهب وظهوره حَيّاً مع غيري.. حاولتُ أَنْ أُبَيِّنَ لهم – وخاصةً بعض المتفهِّمين منا – أن

أهل العلم لا يلتفتون إلى مسائل الخلاف في فروع المسائل.. ولا بأس من الصلاة خلف المخالف للمذهب.. وكان رأي بعضهم أن الصلاة في المترل لها مبرِّراتُها :

- أولاً : وجودُ من يطمئنون إليه في الإمامة .
- ثانياً : أنها صلاةٌ مؤقتةٌ بزمنٍ معينٍ ، ويعود الجميع بعد ذلك إلى المسجد .
- ثالثاً : أنهم يرغبون في اجتماعِ كلِّ الموظفين ومَن حولهم في جماعةٍ تُذَكِّرُهم بحضرموت وبصلاة سيدي الوالد .

وأقمنا صلاة الجماعة في المترل منذ ذلك الحين.. وفي اليوم الثاني وبعد صلاة المغرب رَنَّ جرس الهاتف.. وكان صوت أبي.. وأخذتُ السماعة لأتحدث معه.. فكان أول عبارة قالها:

((الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات)) ..

وكان حديثَ الأبِ للابنِ وحديثَ الابنِ لأبيه.. وعدتُ إلى موقعي من الغرفة في استعادةٍ ذهنية لعجائب الماضي القريب.. وتنسحبُ الذاكرة إلى أيام وجودي في ((عدن)) لا أفكِّر في غير البحث عن عوامل الاستقرار.. المترل.. الشهادة العليا.. الخدمة في المجال التربوي.. وبصيص من نور الدعوة إلى اللّه في حدودٍ ضيقةٍ جداً[1].. لم

(١) تأكيداً بأن المراحل ليست متشابهة؛ ولا مقارنة بينها؛ نرى هذا النص في الرواية ينقلنا إلى واقع المعاناة التي عشتها، فانتقالي من الريف إلى عدن كان دافعه تحسين المستوى العلمي بالدراسة وقد كدتُ أن أفقد وظيفتي قبيل ذلك عندما طُولبتُ مع فجر الثورة في أحور بالشهادة التعليمية لأبقى مدرساً أو أُمحى من ديوان المعلمين.

وكانت مرحلةَ تَحَدٍّ سافر، وقَبِلْتُ التحدي وتمكنت من نيل الشهادة، وبقيت مدرساً أستمع إلى أُسطوانات المستويات في مواقع حملة الشهادات، فيشعرني ذلك بالقَزَمِيّة بين عمالقة المستوى.

مع تحولي وانتقالي إلى عدن برزت مشاكل جديدة، وكان لابد من تجاوزها، ومنها عوامل الاستقرار، والاستقرار في عدن هو وُجودُ المترل، وقد شغلتْ هذه المشكلة أكبر جزء من

أفكِّرْ يوماً ما تفكيراً جِدِّيّاً بالسفر المخطط الذي يسبقه الإعداد التامّ.. والاستعدادُ الخاصُّ والعامّ.. ولكني مع ذلك سافرتُ كما يسافر كثير من الناس.. واختلفت عنهم في القصد والرؤية والهدف.. كان الجميع من حولي مشغولين بالحديث عن عرضٍ تليفزيونيٍّ سيُعاد بعد دقائق لآخرِ جولاتِ المباراة العالـمية لـ ((محمد علي كلاي)) .

مرحلة وجودي بعدن، وقد عبرتُ عنها في الشطر الأول من ((فيض الذكريات)) بإسهاب .

وأما مجال الخدمة في التربية فهو المقياس الحقيقي لـمثلي في عاصمة كعدن، التي كانت تزخر بالـمفكرين والـمنظرين و((التقدميين)) ، وكانت مسألة التحولات الفكرية والتعليمية والثقافية هي الشغل الشاغل للأجيال المخدوعة، وكانت المدرسة في تلك المرحلة تشبه الثكنة العسكرية من حيثيات الأشكال النضالية والـمراقبة ونفثات التنظيمات النارية وممارسة التجاوزات الأدبية ضد العادات والتقاليد وضد بعض شروط الدين، وهذا كله يتطلب من المعلـم قدرة فائقة على المعايشة الصعبة وخاصة إذا كان ينتـمي لشريحة العائلات المنسوبة للدين والتدين ((الكهنوت)) كما تسمى في تلك المرحلة.

فحينا نرى تحدي بعض المدرسين مفاهيمَ الدين بالإفطار في رمضان علناً وشرب السجائر في المكتب أو المدرسة، مع إصدار ألفاظ السخرية والاستهزاء من الصائمين وأفكارهم، وحيث تسمع التعليقات الرسمية عندما يؤذن المؤذن للصلاة وما يقوله المتحذلقون من الرموز عن العبادة والـمصلين، وقد يصعب على المدرس مثلي أن يخرج من المدرسة لأداء الصلاة، أما أن يصلي في المدرسة فالأمر أشد وأفظع.

وهنا تجد أن مسألة الدعوة إلى اللّه والوقوف ضد هذا الحشد من الانحرافات مسألةٌ صعبةٌ للغاية؛ ولكن بصيص الأمل كان يظهر لي أحياناً في مادة التربية الدينية التي كنت أدرسها في بعض الصفوف، ومن خلالها كان الأمل يتسرب إلى نفسي بإمكانية التعبير عن مواقف الإسلام الحق في غمرة التشويه والتسفيه، ومع هذا فقد نلت بسبب ذلك بعض الأذى والـمضايقة من بعض الأشكال النضالية كما كانت تسمى، إضافة إلى بعض المدرسين العرب المستقدمين لتدريس بعض المواد الفكرية والعلـمية كالاقتصاد السياسي والـمادية التاريخية والفلسفة وغيرها.

***

في نجران..

إجراءات المرور إلى جدة لغرض الحج بدأت تأخذ مجراها مع الجهات المختصة منذ اليوم الأول لوصولنا.. وعلينا أن نتحلى بالصبر لبعض الوقت حتى يأذن اللّه بالسفر.. وكان واجباً عليَّ – والحالُ كذلك – أن أَضَعَ للوقت برنامجاً مرتباً: زيارة المدينة الحديثة أولا .

الصعيد.. مساحةٌ من الأرض المعمَّرة حديثاً جُمِعت فيه كل المباني الرسمية للحكومة وغير الرسمية من مساكن تجارية وشعبية.. وحتى المساجد بين الأحياء الحديثة توحي برِقَّةِ الذوق وأصالةِ الفنِّ المعماريِّ الإسلاميِّ البارز.. تجولت مع زميلي في شوارع الصعيد.. ولَفَتَ نظري مبنىً واسعُ الجوانب ظننتُه بادئَ الأمر مدرسةً ثانويةً أو جامعةً.. حيث إنَّ روعةَ تصميمه تُوحي من الرؤيةِ المباشِرَة أنه **موقعٌ ذُو أهميةٍ تاريخيةٍ أو حضاريةٍ**.. قال لي رفيقي :

- وهذا هو سوق الخضار !!

ورأيتُ مبنى أكثر فخامةً وروعةً وتصميماً وفي وسطه ظهرت مئذنةٌ عجيبةٌ ، قيل لي : إنه معهدٌ إسلاميٌّ.. شوارع المدينة واسعة ونظيفة.. وحركة سياراتها هادئة ومنظمة.. نتيجة لسعة المسارب وتنظيم المرور.. لفت نظري كثرة العمال الباكستانيين ينظفون الشوارع ويحملون القمامات.. ويعملون في البناء وفي نقل البضائع من مكان إلى آخر.. وعرفت أنهم يوجدون في عموم المملكة بأعداد كبيرة نتيجة تعاقد رسمي بين الدولتين .

ركبنا « التاكسي » في طريقنا إلى « البلد » .. وهو اسم يطلق على نجران التقليدية.. كنا طُولَ الطريق نشاهد على الجوانب عدداً من المباني القديمة والحديثة..

وأشار رفيقي إلى منزلٍ قديمٍ مبـنـي من الطين يقبع على طرفِ وادٍ يَحُفُّه النخيل فقال:

- هناك كنا نسكنُ خلالَ الرحلات السابقة.. نتَحلّقُ حِلَقاً كل مساء تحت العمود الكبير .

ثـم صمت فجأةً وسرح إلى ماضيه في هذه المدينة العجيبة.. وما كدنا نتوسط الطريق العام في المدينة الأثرية حتى أشار ((السهل)) إلى أحد المنعطفات وقال :

- هنا اصطدمت بنا السيارة.. وهنا أصبتُ في رجلي.. وهناك المستشفى الذي عُولِجْتُ فيه .

وتذكرتُ حينها صورةً فوتوغرافيةً كان قد أرسلها لي إلى عدن وهو يقف على عكازين.. حقاً لقد كان منظراً يثير الشفقة.. لقد أخفيتُ الصورة حتى عن والدته خشية انزعاجها.. وكنتُ حينها أحدث أخي الأكبر محمداً عن هذا الامتحان النفسي والبدني الذي أصاب هذا الإنسان الصبور في أقسى مراحل حياته وأدقها وأهمها.. لاشك أنه كان تدميراً نفسياً صعباً للغاية.. وامتحاناً خطيراً لـ ـمعدَّلات الإيمان.. لقد أثبتَ الأخُ ((السهل)) أنه جديرٌ بشرف القرآن الذي يحفظه بين جنبيه.. فلقد تجاوز كلَّ الامتحانات الصعبة.. وخرج صلباً أكثر مما كان عليه.. وتلك صفة أهل القرآن والإيمان .



في السوق..

((البلد)) .. خليطٌ من القديم المندثر والحديث المتطور.. تَجاوُرٌ عجيبٌ للـ ـمباني وهندستها المعمارية على أرض واحدة.. وبين هذا الامتزاج العجيب في الظواهر تجد الغرابة أكثر في المتناقضات الأخرى.. السيارات والـ ـمواشي.. الرجال والنساء.. البادية والحضر.. البضائع المستوردة والإنتاج المحلي.. هنا يظهر لي عكس ما رأيته في

شمال الوطن.. هنا تبرز معالـم حضاريةٌ أكثرَ مما تبرز في الحديدة.. فجندي المرور هنا رجلٌ حازمٌ قويٌّ الشخصية.. يبدو من محياه الانضباط والـمسؤولية.. ثـم هنا زحامٌ آلِيٌّ متَضاعِف.. وسياراتٌ فخمةُ التصميم والحجم والنوع.. وقيل : إن غالبها من السيارات الأمريكية.

على مدخل « البلد » تزدحم السيارات في عرضٍ جميلٍ للألوان المتناقضة والـمنسجمة.. ولكن الازدحام يعيق الحركة ويضطر السائق ومن معه إلى الانتظار الطويل.. إنه مشهد غير مألوف في عدن ولا في غيرها من بلاد اليمن.. هناك الزحام لا ينتج إلا من حالتين : **حادثٍ مفاجئ** أو **زعيمٍ يزور البلاد** .

لقد طال الزحام.. حتى قَرَّرنا أن نسير على الأقدام.. ما دمنا نريد الاطلاع والفرجة.. شاهدتُ على مدخل البلد مواقع بيع السيارات بالـمزاد العلني.. وتلك ظاهرةٌ لا نعرفها في بلادنا.. وأصوات الدلالين والباعة تزمجر عبر مكبرات الصوت فتحدث إزعاجاً يتضاعف بأصوات المزامير من السيارات المزدحمة .

إن الميكروفونات في بلادنا لا تُستخدم إلا في حالتين : **رسميةٍ** خلال خطاب مسؤول رسمي.. **شعبيةٍ** خلال حفل فني.. وربما استخدمها بائع الآيسكريم في بعض مناطق الشمال.

عندما هالني عدد السيارات المحتشدة ضحك رفيقي وقال :

- إنك لـم تشاهد هنا شيئاً بالـمقارنة مع ما ستراه في مدينة جُدة .

قلت له :

- لكن المشكلة في البترول.. وهذه سيارات يبدو أنها كبيرةٌ وتنزف بترولا.

ضحك صاحبي مِلْءَ فِيه وقال :

- البترول هنا رخيصٌ جداً.. الماء المعلَّبُ أغلى سعراً من البترول.. بإمكانك أن تملأ سيارةً كبيرةً بعشرين ريالا .

يا لَلْعَجَبِ والغرابةِ فيما أسمع !! هل حَقٌّ هذا ؟؟ وكان حَقّاً وصدقاً.. الماء المعلب أعلى سعراً من البترول.. نحن في بلادنا نعتبر البترول مشكلةً كبرى من ارتفاع أسعاره.. إن ما يكفي هناك لـ ملء خزان دراجة نارية يمكن أن يملأ نصف خزان سيارة كبيرة هنا .

دخلنا إلى السوقِ الرئيسِ في البلد.. وتعرفنا بواسطة « السهل » على بعض الأفراد.. فصاحبي يعرف عدداً كبيراً من الناس هنا لبقائه بنجران زمناً يعمل بها.. كان أحدهم بائع كتب قَدِمَ من عدن عبر الصحراء منذ أكثر من عامين.. شابٌّ هادئُ الطِّباعِ يبدو على محياه الاتزان.. يتحدث كثيراً عن أشواقه لأهله ووطنه.. قال : إنه لا يتـ ـمتع براحة كافية لكثافة العمل.. حتى يوم الجمعة لابد أن يعمل.. يتـ ـمنى أن تتهيأ له أسباب الرحلة إلى مدينة أخرى أو يجد عملا آخر.. وهناك شاب يمني آخر يعمل في معرض لأجهزة الراديو والتليفزيون.. تحدثنا معه بعض الوقت قبل أن نشتري منه جهاز تسجيل صغير.. قال : إنه يعمل هنا منذ ثـ ـمان سنوات.. لقد أصبح مشتاقا لوطنه.. إلا أنه غير مطمئن إلى الرجوع.. جاء من وطنه عبر الصحراء ماشيا على قدميه.. كان يُصْدِرُ آهاتٍ حَرّاءَ تطوي هَمّاً دَفِيناً.. ويخلطها بطرفة ساخرة وضحكة مكتومة .

اقترح علي زميلي « السهل » أن نقوم بزيارة لسوق « الحراج » أو « المزاد » لنشتري شيئا من اللوز والزبيب نحمله هدية إلى جدة.. إنه سوق يمتدُّ امتداداً عجيباً على مساحةٍ من الأرض كبيرةٍ.. كنت أعتقد أنه شارعٌ أُطلق عليه اسم «الحراج» كما هو الحال في عدن.. واندهشتُ اندهاشاً لـ ـما رأيتُ السوق بمحتوياته المتكاثرة موزعاً على مساحة الأرض المترامية.. بضائعُ مفروشةٌ على الرصيف أو على مراتبَ خشبيةٍ قصيرةٍ.. وأغلب الباعة فيه من النساء.. إنهن نساءُ البدوِ بملابسهن وحُلِيِّهِنَّ وحجابهن المسمى « بالبرقع » لا تَرى منها سوى بريقَ عينيها.. يَبِعْنَ أشياءَ كثيرةً ومتنوعةً..

اللبان، الكحل ، الجاوي ، الحُليُّ الفضيةُ ، المرجان ، فصوص العقيق ، الكهرمان ، وأحجارٌ متنوعةٌ ذاتُ قيمة ، وقِرَبٌ من السمن البدوي ، والزبيب الأسود، والـ ـملح ، وعلب كبيرة وصغيرة تحتوي على العُصْفُر والوَرْسِ والشذاب والحناء والهُرُدّ.. وتوابلُ لا تُحصى لكثرتها وتنوعها، وحتى « عراجين التـ ـمر » وشعر الحيوانات وجلودها المدبوغة وغير المدبوغة ، وخيام ، وأطعمة ، وبذور ، وزهور ، وريحان ، ومشموم ، وعطورٌ محضَّرَةٌ محلياً ، وثيابٌ مصبوغة ، وأحذيةٌ جلدية بدويةٌ ، وملابسُ صوفيةٌ ، وبِطانات كثيفة ، وجِفانٍ ، وأوتادٍ حديديةٍ وخشبيةٍ ، وأدواتِ نجارة وحدادةٍ ، وأوانٍ خشبيةٍ وخزفيةٍ ومعدنية ، وهناك كلُّ شيء يحتاجه الإنسان .

ترى المرأة قد تربَّعت على عرش المفروشات والبضائع ولا تكاد ترى من جسدها شيئاً ما سوى كَفَّيها ومحاجرِ عينيها التي تُطِلُّ من خلفِ ستارٍ أسود.. وتُلفُّ حول وسطها حزاماً من الفضة أو من الجلد اللـ ـماعِ المطَعَّمِ بالفصوص والقطع الفضية.. وتراها تبيع وتحاور المشتري بطلاقةٍ وقوَّةِ شخصية.. لقد كان منظراً غريباً في وسط المدينة الواسعة المنظمة.. ولكنه أضحى مألوفاً لدى عامة الناس حتى زالت عنهم عُقدَةُ الغرابة.. وفي نفس الساحة الواسعة يقف رجال أمام معروضاتهم المختلفة كالـ ـملابس الجاهزة وألعاب الأطفال وأجهزة التسجيل وأشرطة الكاسيت والعطور بأنواعها.. ومفارش لتصليح الساعات ومسح الأحذية وإصلاحها.. كل ذلك على الأرض .

وأطفالٌ يقفزون هنا وهناك يلبسون القمصان الشعبية الجميلة.. وسياراتٌ محتشدةٌ في ركنٍ جانبيٍّ رأيتُ على بعضها أكياساً من اللوز السوداني والفول والزبيب والـ ـمكسرات وحبوب مختلفة.. وكلهم يبيعون ويصخبون ويضجون.. وتجمعاتٌ للبدو يتحدثون ملء أشداقهم بلهجتهم الغليظة.. وفي آخر المطاف شاهدت امرأةً تعرض عدداً من سِلالِ الخُوص الملون والـ ـمباخر الملونة والأزيار والأكواز وحجارة كبيرة وصغيرة لـ ـم أتعرَّف على نوعها وفائدتها .

كلٌّ من هؤلاء ينتظر رزقه.. ورزقُه يسعى إليه.. وقفنا أمام بائعِ سمنٍ بدويٍّ.. وحوله عشراتُ القِرَبِ صغيرةٍ وكبيرةٍ.. سأله رفيقي عن الأسعار.. عرض لنا لونين من السمن.. أحدهما بقري وآخر سمن أغنام.. تأملناهما ولـ ـم نتفق على القيمة.. كان المبلغ باهظاً فتركناه .

الأمر العُجابُ هنا البيعُ المزاجيُّ والرغبة الذاتية.. لاتوجد قيمةٌ محددةٌ للأشياء والـ ـمعروضات.. ولذلك لابد أن تتجول في السوق كلِّه لتتعرف على أقصى سعرٍ تجده في البضاعة الواحدة.. وأما في الأسواق الرسمية فالعدوى قد سَرَتْ قريبا من الاتساعِ المزاجيِّ في سوق الحراج.. سألنا صاحبَ معرضٍ عن لون من ألوان آلات التسجيل ثـ ـم سألنا عدةَ معارض في ذات الشارع عن ذات البضاعة فاختلفت القيمة اختلافاً بَيِّناً مع أن المواصفاتِ والحجمَ والإنتاجَ واللونَ كلَّه متَّحِدٌ.. يخرج البعض في تحديد القيمة عن الإطار المعقول.. في معرض وجدنا الجهاز بـ ٢٦٠.ريالا ، وفي آخر بـ ٣٠٠. ريالٍ ، ولدى معرض آخر بـ ٤٠٠. ريالٍ ! وأخيراً وجدناه بـ ٢٤٠. ريالا ! ولو كان لدينا متَّسَعٌ من الوقت لذهبنا نبحث عن أقل من ذلك.. إنه ليس ولعاً بالرخيص من الأثـ ـمان.. وإنما بحثٌ ذاتيٌّ عن نِسَبِ جَشَعِ الإنسان.. ويلعب الحظُّ ومواهب البائع والـ ـمشتري دوراً بارزاً في إرساء الزيادة والنقصان .

وشيءٌ آخَرُ.. تُعْرَضُ الملابس المستوردة في المعارض الرسمية بمبالغ باهظةٍ جداً يفوق معدَّلات التصوُّر التقريـ ـيِّ عندما تقارنه بقيمة الشيء ذاتِه في سوق الحراج.. مع أنه لـ ـم يتعرض للفتح أو الاستعمال.. ترى ما هي العلة ؟!



الأخدود..

الأخدود.. وما أدراك ما الأخدود..

اقترح مُضيفُنا الشهمُ يوماً أن نزور الأخدود.. كنت أتـمنى أن أزور هذا الموقع الناطقَ بالبرهانِ القرآنيِّ منذ أَنْ أُخبرتُ أنه قريبٌ من هذه المدينة.. كنت أستعرض في ذهني المعانيَ العجيبةَ الثابتةَ في القرآن : { قُتِلَ أَصحابُ الأُخدُود . النارِ ذاتِ الوَقُود. إِذْ هُمْ عليها قُعُود . وهُمْ على ما يَفْعَلُونَ بالـمؤْمِنِينَ شُهُود }.. ويغمرني شعورٌ مُرْهَفٌ بالقرب من المعنى البرهاني وأنا على موعد مع تحديد المساحة التي أثبتَها التنزيل القرآني قبل مئات السنين .

حملتنا السيارة إلى هناك.. وكنت أظنُّ أني سأتجول بين مواقع الأخدود كما أرجو ولكني فوجئتُ بقول المرافق : إنَّ السُّلُطات لا تسمحُ لأحدٍ بزيارة الموقع ولا التجولِ في أنحائه.. ويكفي أن تُطِلَّ على الآثار من نافذة السيارة !

مساحةٌ كبيرةٌ من المباني المنهارة والـمحروقة يُلاحَظُ حولها وخلالها أخاديدُ حُفِرَتْ في باطن الأرض قد امتلأتْ بالرماد.. قال لي المضيف المرافق :

- إنه قد زار منطقة الأخدود قبل عدة السنين فشاهد في أخاديدها الرمادَ مختلطاً برُفاتِ الموتى على طول المدافن الممتدةِ امتداداً واسعاً .

كانت الأعمدة الرخامية والحجرية المنحوتة تبدو بين الركام ناطقةً بتاريخٍ مشؤومٍ مرَّ على هذه المساحة.. موقعٌ أثريٌّ هامٌّ وذو علاقةٍ بالآيات الكونية العظمى المتجسدة في كتاب اللّه تعالى.. إلا أنه في غايةٍ من الإهمال .

وقيل لنا : إن بعض حجارة مبانيه قد نُقلت عنه خلال فتراتٍ زمنيةٍ ماضيةٍ إلى بلادكم لتدخل في تشييدِ أبـنـيةٍ أخرى ! لَيتَهُمْ يُدركونَ قيمةَ هذه المآثر التاريخية الناطقة بلُغَةِ القرون التاريخية الأولى فيحافظوا عليها.. فتكون سِجلاًّ خالداً لـما يُعانيه المؤمنون في عصور التاريخ ، ومصداقاً لـما جاء في كتاب اللّه .

جاوزنا منطقة الأخدود لتدور بنا السيارة دوراتٍ على امتداد الطريق الموصل بين نجران والحدود كنا خلالها نتحدث عن الإعجاز القرآني.. وما أورده اللّه من الآيات على مبسوط أرضه لتكون عبرةً لأولي الألباب .

كان الحديث شيقاً ومفيداً وذا أثرٍ بالغٍ في النفوس.. وكيف لا يكون ذلك والركب في السيارة يكاد يتَّفق تماماً على أن هذه الأمة الناطقة بلسان القرآن لن يتأتى لها العَودُ إلى مركز العطاء والإحسان إلا بالعَوْدِ إلى القرآن ومنابع الإيمان.. لقد كانت زيارتنا للأخدود مفتاحاً لسبر أغوار العقليات المتقابلة بيننا.. وتَقارُبِ وجهاتِ نظرٍ على طريق النور المحمدي الساطع في عقول وقلوب المؤمنين .

لقد تتابعتْ جلساتُنا وأحاديثنا على ذات المنوال المسؤولِ مراتٍ عديدةً.. في غرفةِ الضيوف.. وفي الحديقةِ وبعد أداءِ الصلوات.. لقد أعجبتني شخصيةُ محدِّثي الفَذَّة.. فهو إلى جانب مركزه المرموق على جانبٍ من الاطلاع والمعرفة في شؤون الدين والحياة.. وله خُطُواتٌ مرسومة.. وآمالٌ معلومة.. والأهمُّ من ذلك – في مقاييسي الخاصة – أنه محافظٌ على واجباته الدينية.. ولا يُفَرِّطُ في واجب ولا يتخلى عن مسؤولية مُناطةٍ به.. آراؤُهُ تَتَّسِمُ بالصدق والوضوح.. محبٌّ للخير وأهله.. ويتمتع بحبٍّ واحترامِ مَن حولَه.. واسعُ الصدرِ.. يكسوه جلالٌ ووقارٌ.. كنتُ أسمعه كل يومٍ بعد صلاة الفجر في جماعة يخلُدُ إلى غرفته يتلو القرآنَ بصوتٍ شَجِيٍّ وحَسَنٍ يبُثُّ في أرجاء المترل النور والإيمان والسكينة .



نبش الذكريات..

رَنَّ جرسُ الهاتف وكنتُ راقداً فانتبهتُ وكأن رنين الهاتف يخصُّني هذه المرة.. ودخل رفيقي « السهل » ليؤكِّدَ صِدْقَ الحَدْسِ الذِّهنيِّ وقال :

- تليفون من جدة ! أحمد أخوك !

كان حديثاً شيقاً وعاطفياً أكثرَ من كونه عرضاً للأحوال والاستعدادات.. ولـ ـما كنتُ على وشك الانتهاء سَرَدَ لي أخبار الأسبوع ذات الأهمية.. أحمد بن علوي المشهور وصل من الحديدة.. عددٌ من الحجاج قد سألوا عنك.. و.. و.. وحوَّل المكالـ ـمة إلى الوالد محمد بن أبي بكر الحامد ، وكان حواراً مسؤولاً من لحظاته الأولى.. ثـ ـم تحدثتُ مع ولدي نِزار المشهور ، وهَنّأَني بنجاحه في الامتحان.. وحديث عن العائلة والإخوان.. وحديث قصير مع طفلة الوالد محمد ((إيمان)) .

واعتقدتُ أن سَيلَ المكالـ ـمات قد انتهى.. وإذا أنا بصوت أجشَّ وضَحُوكٍ ، وإذا هو ضيفُ العائلة الجديد أحمد بن علوي المشهور القادم جوّاً من الحديدة.. وذهب يضحك ويسخرُ من تأخُّري ونجاحه في الوصول قبلي.. وكأني شعرتُ بفارق الزمن المساعد على النجاح لديه فسلـ ـمتُ الهاتف « للسَّهل » ليكمل الحديث معه .

أخذتُ مكاني على الفراش أَجُوبُ فراغَ الذاكرةِ المشحونَ بالـ ـمتناقضات والـ ـمستجَدَّاتِ والتَّوقُّعاتِ واستدعاءاتٍ من الماضي وتقرير للحاضر وتفاؤلٍ في المستقبل.

نعم ؛ هذه صفةُ الإنسان الحي.. يستطيعُ أَنْ يستعيدَ ذاكرتَه وأن يلاحق أمانيه.. أبي وأمي وأخوتي.. وكذلك أطفالي.. هذه أصواتُ الجميع تتداخل في مخازن الذاكرة فتُحْدِثُ رنيناً متشابهاً.. سأكون في الأيام القريبة معهم بإذن اللّه.. ويسري إلى أعماق النَّفْسِ نسيمُ الاطمئنان.. فأشعرُ بوجودي أكثرَ مِن ذي قبلُ.. أَلَسْتُ قد أُصِبْتُ بسُقْمٍ في مُعَدَّلاتِ التفاؤل ؟ ألستُ بالأمسِ كنتُ في مدينة الغُمومِ المركَّبة ؟

وهاأنا ذا جاوزتُها مخلِّفاً بها جَسَداً في رُفاتِ القطيع.. كان يتمنى ويحلم ذات الأماني والأحلام.. ويستطرد الآمالَ وينسج أسبابَها.. لقد ارتمى ذلك الجسد على أرضِ الأبديةِ البرزخية لا يُدرِكُ إلا عالماً عكسياً.. وطموحاتٍ مجهولةً.. انقطعت الطموحات البشرية الأرضية.. واضمحلت الأماني الوجودية.. فتح بموته لغيره معالم وآفاقَ حياةٍ أخرى لم تكن في الحسبان.. ولم تُرسم لها خطوطٌ أو يتحدد بها وُجدان[1]..

حقّاً ! إنَّ قَدَراً مفاجئاً يَسْلُبُ امرءاً غافلاً أهمَّ عواملِ استقراره لَعاملٌ هامٌّ في نبش ذكرياتِ الماضي ولو بعدَ حينٍ .



الضيف..

اليوم تجري في المترل استعداداتٌ لاستقبال ضيفٍ جديدٍ قيل عنه : إنَّه عَلَم من أعلام اليمن ، له دَورٌ بارزٌ في نشر الإسلام والدعوة إليه في أنحاء العالم الإسلامي والأجنبي ، وله أنصارٌ وجماعةٌ ، وقام بزياراتٍ عديدةٍ إلى كثيرٍ من بلاد العالم .

---

(١) عند انتقال المرء إلى بلد ما لابد أن يترك فيها ذكريات ويحمل منها ذكريات، وكانت رحلتي من عدن إلى الخارج على غير تدبير واع، كما هو حال سفر زوجتي إلى عالم الآخرة، من غير سابق ترتيب ولا إنذار ، وكنت عشية أن قبرتها في مقبرة القطيع إلى الأبد أتذكر سلسلة أمانيها التي تبوح بها عن المستقبل وآماله، وكانت تأمل أن تسافر إلى السعودية لتنضم إلى أسرتها وأهلها وأقاربها، وكنت لا أميل حينها لمسألة السفر، فالتفكير في السفر يجلب الهموم ويفتح أعين البوم على أوسع رؤية، واليوم أنا أسافر ولكن بطريق غير رسمية، وهي قد سافرت إلى عالم أبدي استحق أن يُكتب عنه ما كتب، فكلانا قد سافر، ولكن ما أبعد المقارنة بين الرحلتين.

قيل : إن بينه وبين مضيفنا روابطُ قويةٌ ، وذاك أمرٌ بديهيٌّ.. فالمضيف الذي أَلِفْناهُ وعرفناه شخصيةٌ وَلُوعَةٌ بالعلم ومُحِبَّةٌ للعلماء والصالحين.. بل إن له علاقاتٍ متينةً بكثيرٍ من أهل العلم والصلاح في داخل اليمن وخارجها.. وصل ضيف المترل القائم في جَلَبَةٍ ومناقشاتٍ تحُيط به مِن أفرادٍ يلتفون حوله.. رأيتُه شابّاً فارعَ الطول أسمرَ البشرة لا يتجاوز الأربعين من العمر تقريباً.. له لحيةٌ كثّةٌ سوداءُ.. وفي عينيه بريقٌ حادٌّ يُصَوِّرُ للرائي نسبةَ التحدي المشحونة في ذاته.. يلبس قميصاً وجبةً ملونةً وعلى رأسه عمامةٌ بيضاءُ لها طرفٌ مخفيٌّ على جانبها .

كان برفقةِ جماعةٍ من أنصاره وتابعيه.. ولكنه يتفرَّدُ عنهم بوعيه وملكاته وقدراته العلمية ووَفرَةِ معارفه ورصيده الاجتماعي.. جلس في القاعة متصدراً.. فتذكرتُ حينها المثَلَ القائل : « المرءُ حيثُ يَضَعُ نَفْسَه ».. وقُدِّمَ الغداءُ قبل أن يفتتح حديث الجماعة.. وعلى المائدة كنتُ أحاول جمعَ شَتاتِ العبارات والتعليقات والإشارات الصادرة منه لأكوِّنَ عنه معلوماتٍ أَوَّلِيَّةً أفهمُ بها المدى الذي يمكن لي من خلالها أن أُطِلَّ على شخصيته الثابتة.. وعَبَثاً فعلتُ.. إذ لم أستطع أَنْ أَلُمّ شَتاتَ الكلماتِ المتلاحقةِ الممتزجةِ بالطُّرفةِ والسخريةِ والكلمةِ الهادفةِ وصريرِ الملاعق والأواني .

فتح بعد الغداء حواراً هادئاً عن الدين الإسلامي والعلم الحديث.. وشرح أطرافاً من واجبات المسلم المعاصر.. ورأيتُه ممسكاً بزمام النقاش من كل جهته.. حتى عندما حاولتُ أن أسأله سؤالاً قَلِقاً حملتُه معي من أسوار القلق الرسمية أجاب إجابةً ذكيةً تَدُلُّ على ذكاءٍ مُفْرِطٍ وتَوَقُّعٍ لكلِّ امتحانٍ لفظيٍّ مع ابتسامةٍ رقيقةٍ.. وسألني عن مصدرِ ولادتي وتعليمي ووجهتي فأجبتُه باختصار.. وكنتُ أتعجب من تفاؤله بالزمان مع انقباضي من كلِّ شيءٍ فيه ! حتى نفسي !!

وبعدَ صلاة العصر خرجت من المترل إلى المدينة وأنا أستعرض الرجل من قِمَّته إلى قاعدته هيئةً وسلوكاً وثقةً وتعبيراً.. ومعلوماتٍ وعزماً وإصراراً وتفاؤلاً.. فأتعجب من هذا الحماس الذي يصيب بعض المؤمنين في حالاتٍ معينةٍ ثـم ينقلبُ إلى نَقيضٍ وإحباطٍ لدى آخرينَ .

إنه صراعٌ حقيقيٌّ مع أسباب الرفض والتذبذب تنتهي بالـموت أو الخمول.. أو الاعتزال وترك الأمور لـمن يرغب فيها.. أنا لا أشك أن الإسلام مسؤولياتٌ موزعةٌ في دوائرها على كل مسلـم.. ولكني أنظر إلى المعالجَاتِ المرجوَّةِ بصُوَرٍ تختلف عن هؤلاء.. ولكنهم على ما يبدو بحماسٍ مسؤولٍ.. ليمتلئَ القلبُ أحياناً بشعورٍ صادقٍ فيما ينتهجون ويعالجون الأمور.. نَبَّهَني صديقي « السهل » أن آخُذَ حَذَري من السيارات القادمة.. سألني عن هذا الذُّهول الذي أنا مشغولٌ بأسبابه.. فلـم أُفْصِح له عن هواجسي المتدافعة.. واستـمعتُ إليه يُنادي على سائق « التاكسي » الذي وقف مستجيباً لندائه.. وركبنا ولـم أشعرْ حقّاً كيف تحوَّل ذلك التفكير المستعمِر مَنافِذَ إحساسي قبلَ ذلك ليصبح تهيُّئاً للـمرَحِ والفرح منذ أن رأيتُ سائق « التاكسي » العجوز .

أحياناً يستطيع المرء أن يُدرك سَرَيانَ الأرواح بين الأفراد.. واتصالاتِها الباطنيةَ العاكسةَ أنواعَ الأحوالِ والانفعالاتِ على الجوارح ، حتى لو لـم تسبقْ للأشباحِ الهيكليةِ مُقدِّماتُ التَّعارُف.. كان السائقُ رجلاً عجوزاً يرتدي لباس الأعراب التقليدي.. ولحيتُه كثةٌ بيضاءُ.. وعلى شفتيه ابتسامةٌ واضحةٌ تجعل على سماته وملامحه التفاؤل والإشراق النفسي.. ولـما تحدَّث معنا تبين لنا أنه على جانب كبير من الصفاء وحب النكتة والـمرح ، قال: إنه متزوجٌ بثلاث نساء.. ويمكث عند كل واحدة أربعَ ليالٍ متتابعةً.. فقلت له :

ـ لعل هذا هو سِرٌّ مَرَحِك وفرحك ؟!!

فضحك وعلَّقَ بكلامٍ لطيفٍ وظريف.. ثـم عرض علينا أن نعمل عنده في مزرعته لقاءَ أجرٍ ماديٍّ كبيرٍ وسَخِيٍّ.. لقد كان جادّاً معنا لاعتقاده أننا نبحث عن عمل.. ولكننا أقنعناه بعدم رغبتنا في العمل الآن.. مر الوقت معه سريعاً بين الصعيد والبلد.. ونقدناه الأجرة.. ثـم نزلنا إلى السوق ، وبعد أن عدنا إلى المترل وجدناه هادئاً بعد الضوضاء وحرارة النقاش والحوار الذي شهدته غرفة الاستقبال أثناء فترة الظهيرة وما بعدها.. وقيل لنا : إن الضيف الآنف قد رحل إلى جدة.. وكنتُ فضولياً فسألتُ أحدهم : ما وظيفته ؟ فقيل لي : محاضرٌ في إحدى جامعات المملكة مع أنه يمني الأصل والجنسية.. وتلقى دراسته العليا في فرنسا.. واكتفيتُ بما سمعت.. فالرجل إذن على جانب من الأهمية في عصره ولا شك .



الإجراءات في « الخضراء »..

اليومُ الجمعةُ.. ميعادُ الذهاب إلى « الخضراء » لاستلام بطاقة المرور للسفر إلى جُدة.. لقد مَرَّ علي أسبوعٌ كاملٌ منذ أَنْ وصلتُ إلى مدينة نجران جُبْتُ فيه شوارع المدينة واشتريتُ بعض الهدايا المتواضعة لأهلي.. كان منها طَقْمٌ ذَهبيٌّ لـماعٌ بَهَرَني شَكْلُه في سوق المعروضات المستوردة.. وكانت قيمتُه معقولة.. ولـمحتُ البائعَ المتلهِّفَ.. وكان فلسطينياً.. وخلال فترة ترتيبه للطقم المذكور ووضعه في الكيس اليدوي لـمحتُ حولي سوقاً حرّاً غيرَ ذي أَسْقُفٍ أو معارض.. كلُّهم يبيعون على الأرض وسياراتُهم خلفهم.. أوانٍ من المعدن والزجاج والإستيل والخزف المزركش والقاشاني ذات ألوان وأحجام مختلفة ومغرية شكلا وقيمة .

أشار لي البائع بالبضاعة فنقدته المبلغ.. ولمحت في عينيه آثار اليتم والغربة.. أو هكذا تصورته .

أتذكرُ ليلتَها أننا سرنا كثيراً في الأسواق باحثين عن الهدايا.. وصلينا المغرب في أحد المساجد ثم خرجنا نشرب الشاي على حافة الطريق العام في أحد المقاهي الجميلة..كان « السهل » من عادته أن يحدق في المارة حتى ليكاد أن تخرج عينيه من محاجرهما ، ولربما جرت قوتهما المغناطيسية بعض المارة فالتفتوا إلينا .

أشار إلى ثلاثة من المارة وقال :

- هؤلاء من جنوب اليمن.

ورأيتُه يحدق فيهم بقوة وتركيز.. حتى جَرَّتْهُمْ أقدامهم إلى جواره.. وابتسم أحدنا لما رآنا.. وأشار على صاحبيه بالجلوس فجلسوا حولنا.. وبدأ « السهل » يلقي شباكه اللفظية ويتساءل شغفاً بهم بأحوالهم وأخبارهم.. فأخبروه بما لم أكن أتوقع ! ولم نفارقهم حتى صاروا لنا أصدقاء وبعد أن أفرغنا لهم شيئا من أحوالنا ووجهتنا .

كما أخبرونا بأدقِّ تفاصيل حياتهم في عالم الغربة والهجرة.. وأنها همومٌ متشابهةٌ.. وغمومٌ متشابكةٌ.. ونحن كما قال الشاعر: « كلّنا في الهَمّ شَرق » .

حقائبُ السفر محزومةٌ.. ونحن الآن في انتظار السيارة الخاصة التي سنستقلها إلى الخضراء.. ورفيقي « السهل » يبدو متفائلاً وحيوياً اليوم.. جاءت السيارة على موعدها.. وكنا عدداً من الأفراد لهم وِجهاتٌ مختلفةٌ وغاياتٌ متباينة.. ولكنها على طريقٍ واحدٍ.. وخلال طريق الانطلاق إلى المجمع العام للجوازات والترخيصات كان الصمت هو الغالب.. ولا يتكلم أحد منا بلغة معلومة إلا محرِّك السيارة ومزامير المواصلات الذاهبة والآيبة .

ورفع الجندي الحاجز الخشبي لندخل إلى الخضراء الجرداء.. الغبراء القفراء..

ولم نكن في حاجة للتأمل في طبيعة المفارقات الكائنة بين التسمية والمسمى.. فالمهمة الدقيقة التي نحن نطلبُ إنجاحها لا تسمح بالتفكير أو الامتداد إلى خدمة

الخيال وإعمال المواصفات الجمالية أو الذوقية في ركام البشر والصخور والخيم والقمامات والسيارات الرابضة في المجمع الواسع .

الخضراءُ مركزٌ أمنيٌّ في منطقةٍ حدوديةٍ تفصل بين دولتين وسياستين.. وقضيتين وتجربتين.. ولولا ارتباط المرء بالإجراءات الرسمية في هذه النقطة الساخنة لـما رَغِبَتْ نَفْسٌ بشريةٌ أَنْ تَرْتَدَّ إليه مرتين.. « فالـمؤمنُ لا يُلْدَغُ من جُحْرٍ مَرَّتَينِ » .. حيث لا يُدْرِكَ مدى القلقِ والتدميرِ الداخلي في هذه المواقع الفاصلة بين الرفض والقبول وبين النكوص والاستـمرارية إلا مَن رافقتْه مَهمَّاتُها واصطَلَى قلبُه بنارها.. ولذلك فالوقتُ يَمُرُّ بنا بطيئاً تحت نافذةٍ صغيرةٍ يَلْتَفُّ حولَها عَشَراتُ المسافرين لكلٍّ منهم مهمةٌ مشابهةٌ لـما يليه.. وهم بين قائمٍ وقاعدٍ.. ومُتَكَلـم وصامت..

واللَغَطُ المتنامي من الأعداد البشرية المحتشدة يملأ الساحة الترابية العريضة ، والعيون مشدودةٌ إلى النافذة ، ونادى منادٍ من الخلف أَنَّ موقع تسليم بطاقات المرور قد انتقل من مكانٍ إلى آخرَ .

ويا لَلعَجَب العجاب.. فالناس لا يجمعهم في هذا الموقع غيرُ حاجةٍ مُلِحَّة ! فلا غَرْوَ أنْ رأيتَهم قد اتجهوا إلى حيث يُشير المنادي كالـمجانين يَطَأُ بعضُهم بعضاً ، وأشار «السَّهلُ» إليَّ أن ألحق به على طريق الأشباه والأمثال حيث يعيدون تركيب التفاهم جِوارَ نافذةٍ أخرى مغلقةٍ ، واخترتُ لي بين الجموع المحتشدة موقعاً قريباً من النافذة يمنعني عن أشعةِ الشمس المحرقة ، وافترشتُ حذائي على الأرض الرملية وجلستُ صابراً محتسباً أتأمَّلُ سِيقانَ البشر وهي تـمرُّ عن يميني وعن شِمالي وأمامي مجردةً عن ثيابها كبيرةً وصغيرةً ، ضخمةً ودقيقةً ، وبعضها تنسدلُ عليه أطراف قمصانٍ وَسِخَةٍ ملوَّثَةٍ وأحذيةٍ متنوعةٍ من الصندل العالي والـمتوسط والـملتصق بالأرض والحذاء المطاطي والجزمة المخرقة وجواربَ سوداء وزرقاء وبـنـية ، ومفارقاتٍ عجيبةً تظهر للـمتأمِّل في المستوى الأدنى لـمواقع الخطوات في ازدحام البحث عن الذات .

كان رفيقي « السهل » قد اختار له موقعاً آخرَ وقد بدا عليه الملل والقلق للتَّباطُؤِ الواضح في الإجراءات الرسمية من قِبَلِ المسؤولين، كنت المحُهُ منذ أن توزعنا مع الناس في هذه المواقع الجديدة منعدمَ البشاشة مُكْفَهِرَّ الوجه مُشَوَّشَ الحال ، يَنْكُتُ الأرضَ بعودٍ صغيرٍ بيده ، وكأنه يرسم تخطيطاً لنَبَضاتِ قلبِه القَلِق ، وقد يرفع رأسه ليتأمَّلَ الأفراد حوله ليَجْذِبَ من يتناسبُ مع خواطر ذاته ، وكأنه لم يعثر على أحد تتميز فيه نظراتٌ مستقرةٌ ، فرأيتُه يخفي وجهه تحت عمامته الحمراء غضباً من كلِّ شيء ، كان يعتقد كما قيل له أننا سنجد تسهيلاتٍ متعددةً لإخراج البطاقات الموعودة وأننا لن نتأخر كثيراً ، ويمكن لنا أن نكسب صدر النهار للرجوع إلى المدينة للبحث عن مقاعد في أول طائرة تسافر إلى مدينة جدة ، هكذا كان يرسم ويفكر ، ولكن قيل قديماً :

ما كُلُّ ما يَتمنّى المرْءُ يُدْرِكُهُ   تجري الرِّياحُ بما لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

وضاق المكانُ بالناس ، ورأيتهم يحتشدون قريباً مني حتى إن بعضهم يَضَعُ قَدَمَه في حِجْرِي ثم يعتذرُ ويَضَعُها على الأرض ، فعرفتُ أن الموعدَ قد أَزِفَ ، وجَلْجَلَ صوتُ أحدِ المسؤولين من خلف المكبِّر يدعوهم إلى الهدوء والجلوس .

وجلس الجميعُ تلبيةً لرغبة الآمِرِ وحرصاً على عدم إغضابه ، فمصير الجميع بين يديه ، وتُلِيَتْ أسماءٌ تِلْوَ أسماءٍ ، وأخذ المذكورون يذهبون تِباعاً للاسم حتى فَرَغَ المكان إلا من قِلَّةٍ قليلةٍ كنا نحن منهم لسوءِ حظِّنا لم يُنادَ بأسمائنا ، وبدا القلق يَرْتَسِمُ على المحَيّا ، ويزداد الشعور بالإحباط حتى لَيَكادُ يطغى على سلامة التفكير .

وكان « السهل » يتململ وينتقلُ من مكانٍ إلى آخرَ ويُصْدِرُكلماتٍ نابيةً وموجعةً إلى مخاطبٍ مجهولٍ كان قد أَوْعَدَهُ بترتيب الأمر والإسراع بإخراج البطاقات، لم أَشَأْ أَنْ أَتَحَدَّثَ في مثل هذه الظروف مع « السهل » حيث كان قابلاً للانفجار بمجرَّد الاحتكاك..

ويمرُّ الوقت بطيئاً وثقيلاً ، والشمس بدأت تغزو بحرارتها اللاذعة أجسادَنا ، ويسودُ المكانَ صَمْتٌ وهدوءٌ غريبٌ ، الكلُّ في لحظةِ تَرَقُّبٍ لـما يحدُثُ أو يُقَرَّرُ بشأن البقية ، فالصوتُ الذي كان يَمُدُّ القلوبَ بالتفاؤل خلال قراءة الأسماء قد توقف ، وأُغلقتْ النافذة وأصبح الفشل ممكناً باستقرار عوامله الظاهرة .

وجوهٌ كثيرةٌ تَشْرَئِبُّ إلى النافذة ، وعيونٌ أكثرُ منها تحدِّقُ في ثنايا القضبان ، والكلُّ يجمعهم هَمٌّ متشابهٌ وظروفٌ متوازيةٌ إلى حدٍّ ما.. مساكينُ وغرباءُ.. في هذه البقعة الغبراء.. البقعة التي ترى كلَّ شيءٍ فيها يمكن أن يتحرَّك على عجلات ويترك المكان .

أغلبُ ما تصطدم به العينُ دَخِيلٌ على هذه البقعة القديمة قِدَمَ الزمان ، ولذلك فبالإمكانِ أن تذهب هذه الموجوداتُ المركَّبةُ وتزول.. الخيم المثبتة.. الصناديق المبـنـية من الزِّنك.. عَرَباتُ النَّقْلِ التي يستخدمها الباعة.. سيارات الحكومة وسيارات المسافرين.. الحمير والأغنام.. والإنسان فوقَ الجميع.. حيثـما أراد أن يَتَّخِذَ لنفسهِ كَياناً تتبعه أسبابه ولو كان على سطح القمر .

الناس هنا وجوههم محترقةٌ من لَفحِ الشمس.. وثيابهم متَّسِخَةٌ ومهملةٌ من طولِ السفر.. بل يمكن لقارئٍ خبيرٍ بالـمعالـم البشرية أن يقرأَ ملامح الفراغ والبحث عن غاياتٍ معدومةٍ.. الشِّفاهُ تتقلَّصُ بحثاً عن الماء خلال حملةِ زحامٍ ضروريةٍ لإثبات الوجود النِّسْبِيِّ.. وموظَّفٌ يرمي علبةَ ماءٍ على مَدِّ كفِّه تاركاً فيها بقاياه التي يمكن أن تُشبع ثلاثة بطون .

السعيد في هذه النقطة الغبراء من وَجَدَ له رفيقاً يحدِّثُه ويخفِّف عنه وطأةَ الزمان والـمكان ، أما الذين ابتُلُوا بالوحدة فهم يتـمزقون من الداخل والخارج .

هنا إجراءاتٌ رتيبةٌ ومثيرةٌ للأعصاب تَتَبَرَّمُ النَّفْسُ منها وتزعجها للغاية ، ويُغَذِّي ذلك كلَّه جَوٌّ ساخنٌ خانقٌ تزيد سمومَه الرياحُ المتحركة بين الحين والآخر ، وزحامٌ يَفْتَضُّ بَكارَةَ الصبر ويجعلُها غضباً وصراخاً .

وأَطَلَّ الرجلُ من جديدٍ يقرأُ الأسماء ويوزِّعُ الآمالَ والتفاؤل ، وشعرت بأن قلبي قد أَطَلَّ معه من جوفِ صَدْرِي ليتفرَّج على صاحب العقال والقميص.. حاملِ بوق الإعلان.. النافخِ في صُورِ البشارات.. المؤكِّد للكَيانِ الذاتيِّ في دوائر المسؤوليات.. هل يا تُرى سيكونُ اسمي من بين هؤلاء الأسماء المقروءة .. من يدري ؟!

وبدأ القلب يرتجفُ مع كلِّ نداءٍ ودعوةٍ باسمٍ من الأسماء ، وآذان الحاضرين تكاد تقفز من مواقعها لكثرة التركيز والإنصات ، وصاح الميكروفون:

- أبو بكر علي المشهور.. أهلاً وسهلاً .

- حاضر .

وقفتُ على قَدَمِي أَنْفُضُ تُرابَ الاستقرار وأَتَطَلَّعُ إلى مَهمَّاتِ الاستجابة ، فأخذ الموظف يقارن بين صورتي على البطاقة وبين ملامحي الطبيعية الماثلة أمامه ، وكأنه استشكل أمراً ، فقال :

- در إلى الغرفة الرسمية هناك .

وفَتَرَتْ أعصابي فتوراً سلبياً جمع لي رُكاماً من اللحم على هَيكلٍ مَبْهُورٍ.. وتَوَجَّسْتُ أشياءَ كثيرةً كان لها وجودٌ رغمَ عَدَمِ وجودها.. ولم أَلْبَثْ أَنْ وَلَجْتُ الغرفة المنشودة وقلقي يكادُ يَعْصِفُ باتِّزاني.. فزملائي الذين سبقوني على هذه الطريق منذ الصباح المبكر قد تناولوا بطاقاتهم عبر النافذة الخارجية وذهبوا إلى حيث يريدون.. وماذا عساه قد أصاب حَظِّي حتى دُعيتُ إلى غرفتهم ؟؟؟

سلمتُ على الضابط المسؤول وكان « السهل » إلى جانبي ، ولاحظتُ أن الضابط لم يحدِّق حتى في ملامحي منذ دخلتُ ، وكل ما فعله أَنِ التفتَ إليَّ ثم أخذ البطاقة ومدَّ بها إليَّ وانصرف يعالِجُ الأوراقَ والبطاقات الأخرى .

لم أُصَدِّق !! ماذا حدث في الأمر !! والتفتَ إليَّ « السهل » وخرجنا.. لقد كان عاملُ الصدفة القَدَرِيّة سبباً في أن أكونَ أوَّلَ فردٍ في المجموعة يستلم البطاقة بهذه الصورة ، إذ تتابع الأفراد بعدي على ذات المنوال الجديد .

أخذ « السهلُ » البطاقةَ من يدي لنَتَّجِهَ إلى قسم التطعيم ، وكنت متشائماً من متابعة الإجراءات بسهولةٍ ويسرٍ حيث إن الإجراءات الرسمية تتخذ أشكالاً بطيئةً ! وفوجئتُ بعكس ما قيل ، بمجرد دخولنا على الموظفِ وَضَعَ خَتم الصحة على الوريقة وأمضى باسمه كاملاً وأعاد إليَّ البطاقة ، وخرجنا من غرفة التطعيم لا نعلم إلى أين نتجه ؟ وماذا بقي علينا من الإجراءات ؟

كنتُ قد سمعتُ من بعض الأفراد الذين اجتمعنا وإياهم في ذلك المجمع الصباحي الساخن أن بقية الإجراءات ستُؤجَّل إلى الغد الباكر ، ولذلك كنتُ على يقينٍ بانتهاء نشاطنا المجْدِي فيما بقي لنا من الوقت اليوم ، ولكن صديقي « السهل » كان على النقيض من ذلك ، كان يرى أن ما سمعتُه من الناس مجردَ كلامٍ ولابد أن نقطع الشك باليقين ، ولذلك اتجهنا إلى موقعٍ تُدفع فيه النقود المقررة لإكمال الإجراءات .

وقفنا أمامَ نافذةِ الموظف والذي كان مشغولاً بعَدِّ دراهمِه وترتيبِ أوراقه ، ويبدو لي أنه قد أنهى أعمال اليوم ؛ إلا أن « السهل » اقترب منه وكَلمهُ كلماتٍ رقيقةً يبين له ما نحن بصدده ، صمتَ الرجلُ قليلاً ثم رفع رأسه بصعوبةٍ بالغةٍ ، وقال :

- انتهى الوقت ، التسليم في صباح الغد .

لكن « السَّهلَ » لم يقتنع.. وبقي مُكبّاً على مكتب الموظف من موقعه في ركن النافذة ، والرجل منهمكٌ في عمله لا يَلْوِي على تَوَسُّلٍ ولا على استعطافٍ ، وكأنّ «السهل» رأى أن الظرفَ قد أصبح من الصعب فالتفتَ إليَّ وقال :

– **مصيبة ! ماذا نفعل** ؟ نجلس إلى الغد ؟ غيرُ معقول ! هيا بنا إلى « فلان » .

وسَمَّى لي رجلاً مسؤولاً في الموقع له به صلةٌ وعائدٌ .

ذهبنا نستبق المسافة حتى باب المكتب المراد ونادى « السهل » على صاحبه.. ولكنه امتَعَضَ وتغيَّر لونُه بمجرد أن رأى صاحبَه واقفاً على بابه ، وأخيراً أبدى أَسَفَه في الأمر، وأكَّد لنا أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً للمساعدة ، فصاحب الصندوق رجلٌ لا يفهم ظروف الآخرين ، وليس له صلاحياتُ عملٍ أكثرَ مما قد عمل ، وبدا

«السهل» يَضِيقُ ويضيق وتبرزُ ملامح غضبه من خلال عباراته ، وبدأ صوته يرتفع على صوت صاحبه ، وكلٌّ منهما يلوم الآخر على عدم فهمه للظروف.. وكان في الغرفة رجلٌ ثالثٌ أثارَ حفيظتي لفضوله حيث كان يتدخَّل بين كلِّ عبارة وأخرى ضِدَّ «السهل» وإلى جانب الرجل الآخر.. ولما احتدم النقاش قام الموظف آخِذاً بيد ذلك الطُّفَيلِيّ وخرجا لا يَلْوِيانِ على شيء .

وأرغى « السَّهلُ » وأَزْبَد.. وغَضِبَ وعَرْبَد.. وقال كلماتٍ لم يسمعها من القوم أحد.. وخرج إلى الساحة يهدِّد ويتوعَّد.. وكأني به أَدْرَكَ عند خروجه أنَّ ضيق المواطِن سببٌ في ضيق الصدور.. فقد بدأ الهدوءُ يتغشَّاه بمجرد أن خرجنا من سجن الآراء وسقف المغالطات الروتينية.. جَرَّنا الصمتُ المتبادل حتى « مقصف » صغيرٍ يقبع على زاوية من زوايا المساحة الساخنة.. فأخذنا بعض الفطائر والمشروبات المثلجة.. وجلسنا تحت عربة صغيرة نستمتع بالأكل والشرب والتأمل للموجودات .. ولم يتكلم أحدٌ منا.. فبعض المواقف صمتُها يُعَدُّ عينَ الحديثِ المعبِّر.

والتفتَ « السهل » إلى ساعته فإذا هو قد مَرَّ الوقت عن موعد الظهر والغداء، فقال:

- كيف العمل ؟ عودتنا بعد هذا الوقت إلى نجران شبه مستحيلة.. لأن الجنود لا يسمحون بخروج أحد من المواطنين إلا بالتصريح الرسمي ؟

وأخذنا نتجول بين المكاتب والمقاصف والسيارات بحثاً عن رفيقٍ نعتمد عليه في تسهيل خروجنا من النقطة العسكرية.. وفي أحد المكاتب التقى « السهل » بأحد أصدقائه المقيمين في نجران.. فاستفسر منه عن شأن خروجه.. فأكدوا عدم الإمكانية حتى لمن يحمل تصريحاً رسمياً بعد هذا الوقت.. واقترح بعضهم أن نرافقهم إلى موقع قريب من الخضراء حيث يقيمون ويسكنون .

بالطبع لسنا في حاجة إلى غربة جديدة ضمن الغربة الكبرى.. فاعتذر « السهل » لهم.. وعدنا أدراجنا إلى مواقع البطاقات والتطعيم وغرف الرخص.. وكان هناك أناس كثيرون في الانتظار .

جلس السهل قريباً من باب مكتب البطاقات يتفرس المارة والـ ـموظفين.. وكأني به على موعدٍ مغناطيسيٍّ لجذبِ شخصية معينة لأمر ما.. وجلستُ أنا قريباً منه أتأمل الداخلين والخارجين وقوافل من البشر الجاثـ ـمة تحت مخيم واسع على أرضٍ جرداء.. وفراغٍ وخَواء..

وسَرَتِ الدقائقُ ثقيلةً وباردةَ الطبعِ والانطباعِ و« السهل » إلى جواري.. يرتعد من الغيظ والغضب.. حتى إني لأخشى أن أضعَ يدي على كتفه أو يده فأفاجأ بالانفجار.. ولـ ـما طال الوقتُ ومرَّتِ الدقائقُ الطويلةُ سألتُه سؤالاً سخيفاً لأَسْبُرَ غَورَ ذاته وتوقعاته.. فقلت له :

- لـماذا نُصِبَتِ الخِيَمُ في هذه المساحة مع أن كافةَ المنطقة لا يوجد بها إلا خيامٌ صغيرةٌ وأبـنـيةٌ من الزنك والأخشاب؟

أجاب إجابةً باردةً تؤكِّد مستوى ارتفاعِ قلقه ودرجة حرارته إلى الغليان !..

نعم ؛ إنه معذورٌ فيما هو من حال وانفعال..

إنه يَتْعَبُ لِغَيرِه.. كان بإمكانه أن يعودَ إلى نجران بإقامته الرسمية إذ إنَّ الحَظْرَ لا يشملُه مثلي.. فأنا المربوط بالرخصة المرورية المعلقة إلى الغد.. ولكنه لا يريد أن يذهبَ ويترُكَني.. فالـ ـموقف يحتـ ـم عليه أن يكونَ صبوراً مُتَّسِعَ الرؤية والضمير..

لاحظتُ في مسافة الذراع كُرَةً زجاجيةً صغيرةً.. اختفى جزءٌ منها تحت التراب.. فمَدَدْتُ يدي فانتزعتُها من الأرض.. فكانت سلسلةَ مفاتيح تنتهي بكرةٍ زجاجيةٍ مُلِئَتْ سائلاً أُحِيطَ بأرقامٍ لاتينية كبيرةٍ.. شغلتني هذه الكرة الصغيرة فترةً من الوقت رغبةً مني في معرفةِ السائل المشحون بها.. ضربتُ الخزان الصغير بحجرٍ مدببٍ فانهمرَ السائل على الأرض وانتشرت في المكان رائحة البترول !

قلتُ « للسهل » من دون شعور بعد أن قبضتُ على ذراعه :

- **إنه بترول ! كنت أعتقد أنّه ماء !**

قال السهل غاضباً منفعلاً :

- **أُترُكْ هذا العَبَث.. ما الفائدة ؟؟**

إنه يتحدث معي بلغة الأب الكبير.. ويتحدث عن الفائدة..

نعم ؛ يقول لي عن عملي هذا : ما فائدته ؟

ضحكتُ وقلتُ لنفسي : « نحن الأطفالُ هكذا.. نحبُّ أَنْ نملأَ الفراغ » .. وكأنه سمعني.. فقد أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى مفكراً في هذا الحال الذي نحن فيه.. لقد كان صاحبي محزوناً للغاية.. وسَرَى إليَّ شيءٌ من الحزن والأسى فرميتُ السلسلة وخزّانها إلى الأرض.. وأخذت أُفكِّر كصاحبي ويرتدُّ إلي ذهني سؤالٌ حائرٌ فيقول :

إلى متى ونحن نفكِّر في أمرٍ لا يمكن تدبيره ؟ وما هو فائدة هذا العبوس الجاثم على صدورنا ووجوهنا في هذا الظل الكئيب ؟

واهتديتُ إلى استدعاءات ذهنية جلبها الفراغُ والبحثُ في جوانبه.. فغادرتُ المكان أَسِيحُ في ثنايا مخيِّلَتي.. مرتاحاً مستأنسا بما أرى وألقى.. رأيتُ أطفالي يلعبون ويضحكون وهم في غرفةٍ كبيرةٍ وحولهم ألعابٌ وصورٌ وكتبٌ.. ورأيتُ أمي جالسةً في ركن الغرفة تتحدَّثُ مع أبي وعلى صورتهما فَرَحٌ وجَذَلٌ وسرورٌ.. وإخواني وأخواتي رأيتُهم فُرادَى يبتسمون ويعلِّقون بالعبارات المضحكة اللطيفة .

العجيبُ في هذه الاستدعاءات أنها مرتبطةٌ بالماضي رغم وجوده في الحاضر.. فكلُّ شيءٍ أفكِّرُ فيه أستدعيه وأَنظرُ إليه إنما هو تمثالٌ منحوتٌ في زمانٍ ومكانٍ ذهنيٍّ سابقٍ أَلِفْتُهُ وعرفتُه وعِشْتُ في ربوعه.. إن صراخ الإخوان والأولاد.. وابتسامة الأب والأم وحديث العائلة.. حوارٌ داخليٌّ مقرون بصورٍ كنتُ قد جمعتُها في مخازن ذاكرتي بأحور.. ويا لَكَ مِن بلدٍ عجيب.. وغريب.. وحبيب..

***

العود إلى نجران..

صدح صوتُ أذان الخطيب من مسجد الخضراء ، فالخطبة تبدأ بعدَ لحظات ونحن لازلنا هنا لـم نتَّخذْ قراراً لشيءٍ ، كنتُ أنتظرُ من « السهل » أن يقولَ شيئاً ولكنه صامتٌ صمتاً مريباً ومقلقاً للغاية .

لـمحنا أحدَ المسؤولين قادماً ، فلـما رآنا ماكثينَ في تلك البقعة وعرف « السهل » جلس إلينا يحدِّثُنا عن آخر ما وصلنا إليه ، لكنَّ صمتَ « السهل » وابتسامته الباردة جعل الرجل يقرأُ حقيقة الألـم والخَيبة ، ولذلك فقد غيَّرَ الرجلُ أسلوبَ حديثه وبدا لَطِيفاً يخفِّف عن صاحبنا ما اعتراه ، واتَّفقا أخيراً على أن نغادر معه الخضراء في سيارته ليمكن لنا أن نتجاوز الخشبة الفاصلة بين الإدارتين .

وسرى الدم في شرايين « السهل » ، وابتسمَ منشرحَ الصدر والوجه ، وبدتْ نغمةُ صوتِه تظهرُ جليَّةً واضحةً ، وقمنا من مواقعنا برفقة المسؤول إلى مكتبه ليرتب شأن الخروج من نقطة الخضراء .

تأخرنا بعض الوقت منتظرين انتهاء أعمال المسؤولين ؛ ولكنا قد شعرنا بشيء من الاطمئنان ، خصوصا أن السيارة قد وصلت إلى باب المكتب .

الإنسان – رغم العقل والعلـم والحجم – إلا أنه يملك غرائزَ صبيانيةً تبرز على سطح جوارحه عند الأزمة والحرج.. وعندما تنسدُّ أبواب الرجاء في وجهه.. ولكنه يضحك ويتهلَّل وينشرح عندما يجد مخرجاً من مأزقه.. ولعلنا نعرف حقاً قيمةَ الانشراح والانبساط إن لـم يسبقه تَبَرُّمٌ وألـم وضِيقٌ .

انطلقت السيارة خارج الخشبة العسكرية بعد صعوبةٍ بالغةٍ وتـمحيصٍ شديدٍ من ضباط النوبة وجنود الحراسة.. وأخذٍ لفظيٍّ وعطاءٍ مع السائق المسؤول . وانطوتْ

مسافةُ الطريق بين نجران والخضراء انطواءً عجيباً يلحظه المرءُ المتَلَهِّفُ مثلنا لبلوغ القصد قبل الأوان ، نحن لابد أن نسارع لنلحق الغداء ، أما وقت صلاة الظهر فقد لزم علينا أن نؤديَه عند السكون بالمترل فلا زال من الوقت بقية ، هاهو النعاس يداعبُ الجَفْنَ المرهقَ المكْدُود ، وأغيبُ لَحَظاتٍ في سُباتٍ مستعجلٍ ينقطع بحركةٍ بسيطةٍ من السيارة المنطلقة ؛ ولكن إلى متى ؟ لابد أن أغالب النوم حتى أبدوَ أمام الركب نشيطاً، لابد أن أتَلَفَّتَ بوجهي ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال أتأمَّلُ الجمال الذي أَضْفَتْهُ يدُ الإنسان على هذه المساحة.. وأتأمَّلُ في الجهة المقابلة على بُعْدِ بَصَرِي تلك المساحات الشاسعة المطعمة بالشجيرات الشوكية وجذوع السمر والصخور ، وأعيدُ النظر قويّاً لأتفحص الوجوه التي حولي فيرون أني يَقِظٌ ولستُ بنائم..

يتكلَّفُ الإنسانُ أحياناً مِسْحاتٍ عجيبةً من التصرفات ليرضيَ به عقليات المحيطين به على حسابِ صدقه وإخلاصه وكيانه.. كلٌّ ذلك محافظةً على توازنٍ وَهْمِيٍّ يفرضُه الإنسان على عقليات الآخرين بعملياتٍ صناعيةٍ في مدينة جسده.. واستنفارٍ مزعجٍ لأدواته وجوارحه.. وهو شرٌّ لابد منه..

هذه هي « العريشة » .. قريةٌ صغيرة على الطريق بين الخضراء ونجران.. إن اسمها دليل على كيانها الأصلي.. فالعريشة تصغير للعَرَشَة.. والعرشة البناء المصنوع من الأشجار لسد حاجة الإنسان القديم وحمايته من الريح والشمس والأمطار.. ولعلها بدأت كذلك في عصورٍ خَلتْ كغيرها من المدن والعواصم.. ولكنها الآن لم تعد بعرشة ولا عريشة.. وإنما هي قرية حديثة المباني والتجهيزات.. تمتاز بمزارعها المنتشرة حولها من ثلاث جهات.. وهذا هو سر تجمع الناس في أسواقها لشراء الأعلاف والحشائش وأنواع الحبوب والأغنام.. إنها الحد الفاصل بين الطريق إلى الخضراء وبين الطريق المؤدي إلى المطار الحديث بنجران..

تَذَكَّرَ أحدُ الركاب أن بالـ ـمترل ضيافةً رسميةً لشخصياتٍ مرموقة.. وأن الوقت إلى حدٍّ ما لا يسمح باللحاق.. وزادَ السائقُ سرعة السيارة استجابةً لعوامل الرغبة في الحصول على غداءٍ دَسِمٍ.. وكان العجبُ العجاب أن وصلنا إلى البيت في الوقت المناسب !

أحياناً يخطر على بالي أن القَدَرَ يدفع عقلية المرء دون إرادةٍ سابقةٍ ليتذكر أمراً ما.. فيسلك بسببه سلوكاً معيناً يجد المرء به عين النجاح والـ ـمراد.. ويعود الإنسانُ الأنانيُّ بطبعه ليمجدَ عقله ومواهبه.. وإِنْ هِي في الحقيقة إلاّ سِهامُ القضاءِ الأَزَلِيِّ حَرَّكَتْ الجوارحَ والحواسَّ..



إلى الحجاز..

((يومُ السبت))اليومُ الثاني لنا في هذا المجمع الساخن ((جوازات الخضراء)) ..

يبدو في الوجوه تفاؤلٌ مرسومٌ بألوان من الرجاء والتوفيق.. حان موعد التسليم.. وتحركنا وفوداً متحركةً إلى موقع الصندوق.. وسَلـم كلُّ فردٍ بطاقته المطلوبة وطُلب منّا الانتظار..

هناك مساحة من الأرض اعتادت أن تستوعب أهل المطلب المتشابه مفروشة بالتراب اللين.. رأيتها قد اكتظت بالجالسين من كل حدب وصوب.. أوجهٌ مختلفةٌ مع تشابه تركيبها.. ورأيتُ وجوها عرفتها وعرفتني في هذه المساحة الصغيرة وكوّنّا في الأرض الترابية حلقةً دائرية أو شبهها.. نتحدث عن الماضي وعهدٍ لنا كان لنا في أرضهم خلالَه سكنٌ وعملٌ وتعليمٌ واستقرارٌ نسبيٌّ.. وكلٌّ لسانٍ تشكو الزمان والأحداث والأحوال.. وقلوب تـمتلئ بالتفاؤل في خطوتها المستقبلية المطلقة..

وأشرفتِ الساعةُ على الثانية عشر والنصف بعد الظهر.. وأُعلن توزيعُ الرخص الرسمية.. وتتابع الأفراد في استلام رخصهم الرسمية.. ووقفتُ مع ذكر اسمي أتناول الرخصة التي استفرغتْ جهداً ووقتاً وأحاسيسَ موزَّعةً.. كنتُ أشعرُ خلال تَسَلـمي لها بزُهُوٍّ داخليٍّ يجتاحُ آلام الأيام الثـمانية كلِّها.. وتأملتُ وجه زميلي ((السهل)) فإذا هو متهللٌ ومشرقٌ.. وعلى يقينٍ بالانتصار في مجهوداته الكبيرة.. ومد يده مهنئاً ومحيِّياً ولـم يُفْلتْ يدَه من يدي.. وإنما جَرَّني إليه لنتخذَ طريقنا بين المتخلفين في ساحة الأمل الممزوج بالألـم.. وَدَّعْتُ عدداً ممن بقي منتظراً بيدي الأخرى.. ولكثرة ما تحدثنا بين نقطة المنح وبين موقع سيارات ((التاكسي)) أنستني الدَّفْعاتُ القلبيةُ المعبرةُ لدينا ماذا تناولتُ وفي أَيِّ حديثٍ تَقَوَّلْتُ ؟ ولكنَّ آثارَ الحديثِ المتواصلِ طَرِيّةٌ في الأفواه وعلى الملامح .

وأخذنا مواقعنا في سيارة الأجرة الصفراء.. وغادرنا مجمع الخضراء نتأمل الانتقال المتدرج للإنسان من مكان إلى مكان.. بينما غُيرنا لا يشعر بهذا الدفع المتصل للانتقال.. حيث قَبَعَ في موقعٍ ما يؤدي دوراً هاماً في أعمال الزاوية المختصة بحياته ومهماته.. ويمهد طريق المرور والحركة لأشباهه وأمثاله ممن لا زالوا على كفِّ القَدَر المفضي بهم إلى الاستقرار في زاوية محددة من زوايا المساحة الأرضية المشحونة بالتجربة المثلى للأجيال والأمم .

طلب « السهل » من السائق أن يتجه بنا إلى مكاتب الطيران في البلد لعلنا نجد حجزاً مستعجَلاً إلى مدينة جدة ؛ ولكن موظف المكتب اعتذر لنا اعتذاراً لطيفاً من عدم الإمكانية ، وبَيَّنَ لنا أن الطائراتِ محجوزةٌ لـ ـمدة أسبوع تقريباً ، فالزمن يقرب من موسم الحج والـ ـمسافرون إلى جُدة بالـ ـمئات للـ ـموسم ، ولا يمكن أن نجد فرصة خلال الأيام السبعة القادمة .

رأيت صاحبي « السهل » قد فتح باب الخروج وولى إلى الشارع العام قبل أن أُنهي الحديث مع الموظف المسؤول ، وكأنّ الموظف أدرك عدم الفائدة من مواصلة حديثه عن أسباب الزحام وانعدام التذاكر بعد أن ولى « السهل » ، فودعتُه وخرجتُ أبحث عن صاحبي المنطلق نحو سيارات الأجرة في خطوات مستعجلة ، وحجز لي موقعاً في السيارة وركبنا إلى منزلنا الميمون بالصعيد .

تـ ـم الاتفاق على الرحلة بالطريق البري رغم طوله وبعده ، فالانتظار هنا غيرُ مُجْدٍ ولا مفيد ، وكان هذا أيضاً رأيُ مضيفنا الكريم وكثيرٍ ممن حوله وحولنا .

وصلينا الظهر لنقوم بحزم الأمتعة واستكمال ترتيب المحتاجات ، وجُهِّزَتْ لنا سيارةُ صاحبِ المنزل لتُقلَّنا إلى موقع السيارات المغادرة من مدينة نجران إلى جُدة والطائف .

وكان وداعاً حارّاً وكلـ ـماتٍ دارتْ بيننا وبين أولئك الرجال الكرماء الذين يقدِّرُون الإنسان ويحبون الخير ويتسابقون إليه ، وشددتُ على يد مضيفنا الفاضل

وتعانقنا على بركة اللّه وحبه ، واستودعتُ اللّه دينَه وأمانتَه وخواتِيمَ عملِه ، وركبتُ مع زميلي السيارة الصغيرة عبر الشوارع الجميلة التي حفظنا دقائقَ موجوداتها لكثرة ترددنا ومرورنا عليها .

وكان الإحساس يتشابه في عَدِّهِ التنازليِّ مع خروجنا من مركز الخضراء ونحن نودع الظواهر والشخوص والأماكن توديعاً بطيئاً يتساوى مع سرعة السيارة واتساع نظر العين إلى محتويات الأفق .

لـم نقف في نقطة السيارات المسافرة إلى جُدة أكثر من نصف ساعة تقريباً حتى امتلأتْ مقاعدُ « التاكسي » بالعدد المطلوب من المسافرين ، وقد لـمحتُ « السهل » منذ أن حَطَطْنا الأدواتِ في مخزن السيارة وهو يحدِّق النظر في فردينِ شاء الحظ أن يكونا معنا في ذات السيارة المسافرة ، وعرفتُ أن إحساسه قد تحرَّك نحوهما ، وأنه لابد لنا من قصةٍ تظهر بعد هذا الاستدعاء المغناطيسي ، وصدق الحدس حيث تـم التعرف عليهما قبل حركة السيارة في منطلقهما الطويل بفضل انفتاح « السهل » وخبرته في سبر غور الأفراد ولو كانوا صامتين .

أسدلتِ الشمسُ ثوبَ المساء على محياها الصبيح ، وامتلأ الأفق بصفرةٍ حالـمةٍ جميلةٍ تتخللّها التكوينات الغمامية الجميلة ، وأَعْتـم المكانُ تحسُّباً لاختفاء الشمس المكدودة من متابعة رحلتنا منذ الصباح الباكر ، وكأنها قد اطمأنَّتْ على وجودنا في سيارة الأجرة المغادرة إلى الطائف وجُدة ، ولـم يعد لها في محيط الظهور من حاجة ، فغابت مُوَدِّعَةً لنا يوماً حاسماً وجميلاً ورحلةً موفقةً لطيفةً .

انطلقتِ السيارةُ من نقطتها الأولى في طريقٍ معبَّدٍ تحيط به المساكن والأشجار والحدائق الظليلة.. وتفوحُ في الأجواء رائحةُ الشجيرات الندية وعبير زهرها الفوّاح ، فتُذْكِي القلبَ وتُنَشِّطُ الفِكْرَ وتُنَمِّي في القلب دفعاً حالـماً جميلاً .

ومررنا على مجمعٍ سكنيٍّ مبني تحتَ سَفْحِ جبلٍ عريضٍ من الزنك والأخشاب.. قيل لنا : إنه مجمعُ المهاجرين من أبناء جنوب الوطن الذين شرَّدتهم الحروب والتغييرات الأخيرة في البلاد منذ قيام الثورة المسلحة والاستقلال السياسي .

إنه منظرٌ كئيبٌ ومؤلمٌ للغاية.. فكم للإنسان الجنوبي من غربةٍ وكربةٍ وهَمٍّ وشَتاتٍ وتمزقٍ.. لقد آل المواطن من جنوب الوطن بعد التغييرات الجديدة إلى حالٍ غير محمود في الداخل والخارج.. أَوْدَى بالأعداد الهائلة من سكان البلاد إلى الهروب بأنفسهم وبأهلهم من حروبٍ طاحنةٍ وفتنٍ أهليةٍ مدبَّرةٍ ومذابحَ داميةٍ تخدم رموز المصالح المغلفة بأغلفة المسؤوليات وحب الأوطان المزيف.. لقد أَثَّرَتْ هذه الهجراتُ المتتاليةُ على القوة البشرية والصناعية والزراعية في مبسوط الأرض الطيبة..

وخرجتُ من هَمِّي بحديثٍ أثاره زميلي « السهل » مع رفيقيه الذين تعرَّف عليهما آنفاً وكانا يسردان مواقف الماضي المؤلمة في قصة رياح التغيير العاصِفة في المساحة الجنوبية البكر.. وكان أحدهم من مدينة شبوة بالمحافظة الرابعة يتدفق حديثه ألماً وحُرقَةً وهو يروي هجرته من بلاده مرغماً إلى حديث الغربة الذكريات .

وتداخلت الأحاديث والتعبيرات والأخبار والحكايات.. واشترك مع الجميع سائقُ «التاكسي» النجراني والذي لفحته حرارة الحديث عن الغربة والهجرة والنكبة المدمرة لأمةٍ بأسبابها.. فنَشَطَتْ كَوامِنُه العاطفية يواسي ويخفف بعباراتِه الآلامَ والذكرياتِ القلقةَ التي صبغت الجوَّ المحدودَ بين أركان سيارته الصفراء .

ليلٌ طويلٌ مَرَّ على رَكْبِنا الصغيرِ المتحرِّك في طريقٍ جبليٍّ متعرجٍ ينخفض حيناً وينبسط في بعض الأحايين انبساطَ السهول الفاصلة بين المرتفعات والهضاب ، والركب بين الذكريات والأخبار والحكايات ، ونقاشٍ حول بعض المسائل العلمية والفقهيةِ خصوصاً عن أحكام الحج والعمرة .

وكنتُ رغمَ اطِّلاعي على كل شيءٍ من المعرفة في مبادئ هذا النُّسُك العظيم إلا أن التجربةَ العمَليةَ الموثَّقَةَ للحفظ النظريِّ منعدمةٌ تـ ـماماً ، ولذلك فقد رأيتُ بعض الركاب يَصِفُون المناسكَ ويتحدثون عن الأحكام والسنن والواجبات بطلاقةٍ ويُسْرٍ لكثرة ترددهم على الحج ومناسكه .

وكنتُ ألاحِظُ بعضَ الأخطاءِ الفقهية التي يقع فيها المتحدثون فأُثيرُ حولها سؤالاً أستقي منه أبعادَ المعرفة في المسائل حتى لا أَصْطَدِمَ بفتوى مذهبيةٍ موثَّقةٍ لا أعرفُها ، وكان حواراً شيقاً ومفيداً .

مررنا على عدة نقاط للتفتيش.. وعلى قرى صغيرة ومدن شبه كبيرة متناثرة على الهضاب والسفوح.. وقد نقف في بعض القرى لشرب الشاي واستراحة الركاب.. وفي قرية من هذه القرى الصغيرة كانت الأسواقُ مزدحمةً والحركةُ باديةً للعِيان.. تَبَيَّنَ أنها قريةٌ استراتيجية وهامة.. وقفت بنا السيارة أمام إحدى المقاهي المزدحمة وذهب الركب لاختيار ما يأكلون وما يشربون.. وأثار دهشتي تجمع الناس على جهاز التليفزيون وارتفاع صخبهم وصراخهم..

واستُؤْنِفَتْ الرحلةُ من جديد.. وقد مَرَّ نصف الليل وأشرفت الساعة على الواحدة.. ولـ ـم يلبث الركب أن تناولوا أطراف الحديث من جديد عن المصارعة والهوايات وكأني بالـ ـمجموع الأوسع من الناس هنا يغرمون بهذه الرياضة العنيفة..

لقد كنتُ أحبُّها حُبّاً جَمّاً في عدن.. وكنت أتفرَّغ لها تفرغاً كاملاً.. وكان عمي المقيم في عدن يتحمَّس لها حماساً عجيباً حتى أنه يوزعنا إلى فريقين عند بدء المصارعة يكون هو مع فريق يشجِّع لاعباً ضد الآخر.. ويبدأ الحماس والتشجيع والـ ـمنافسة.. وكأننا في الحلبة حقّاً..

وقد كان عمي في مجموعٍ من أقاربي هناك وحيداً في هذا السلوك الرياضي العنيف وهذا الحماس العجيب.. أما هنا.. فمنذ أن وصلتُ إلى نجران وأنا أكاد أُؤَكِّدُ

الجرثوميةَ المرضية التي أصابت العقليات الكثيرة بهذه الرياضة الى جانب كرة القدم.. حتى إنها لتأخذُ عليهم من أوقاتهم شيئاً كبيراً ونصيباً عظيماً.. إضافةً إلى ما يترتب عليها من ضياعٍ لأوقاتِ صلواتِهم وعباداتِهم ومذاكراتِ طلابهم.. وصراخٍ عنيفٍ ينشُبُ بين أسرهم وعائلاتهم حول الفرق الرياضية وأفراد اللاعبين..

بدأ النعاس يغزو مَرْكَبَتَنا الصغيرةَ.. وبدأت آثار تخدير الهواء السائب من نوافذها يداعب أجفاناً طال تركيزها على الأضواء في ظلام الوِهاد والنِّجاد..

وفي نقطة من نقاط التفتيش التي وقفنا أمامها للإجراءات الضرورية المتبعة طال الانتظار وكثر التمحيص والتنقيب.. وكنتُ متكئاً في مؤخرة السيارة مكتفيا بزميلي في فتح الأدوات والمتاع.. ولكن التأخيرَ المريب الذي ظهر على المعاملة مع الركاب ذوي الأدوات جعلني أفتح الباب وأخرج لأشاهد ما يدور.. رأيتُ الجنديَّ قد فتح حقيبتي يُفتِّشها.. كان قلبي يَدُقُّ.. ليس من الخوف.. ولكنْ خَشْيَةً على مُذَكَّراتي التي جمعتُ فيها بعض ملاحظاتي وأعمالي وأشعاري.. أن تقع في يده فتطول الملاحظات والتأويلات.. **ولكن حصل المحذور**.. كنتُ أراقب من بعيدٍ وزميلي يقوم بمساعدة الضابط المفتش فرأيتُه حمل المفكرة الزرقاء وبدأ يتصفَّحُها من أولها.. كنتُ أستحضر المواضيع المكتوبة مع تقليب صفحاته.. ولمحتُ صاحبي « السهل » يَغْمِزُ لي بعدم التدخل وأن أظل بعيداً.. وحسناً فعلتُ في استجابتي.. توقَّف الضابط على صفحة بها قصيدة شعرية وقال مخاطباً لصاحبي :

ـ أنت شاعر ؟

فرَدَّ عليه :

ـ هكذا.. نكتب ولا نعرف شيئاً..

واستمر يقلب الصفحات حتى وقف على دراسة لقصائد الحبيب عبد اللّه بن علوي الحداد كنت قد كتبتُها إبّان مكثي في مدينة الحديدة.. وكأنه لم يَفْقَهْ منها شيئاً أو لم يقف خلالها على شيءٍ يلائم ما يبحث عنه أو يظنه .

وأخيرا أعاد الكتاب إلى مكانه في الحقيبة وأنهى تقليب الثياب والأدوات والهدايا وهويات الأفراد ، ثـ ـم طلب منا إعادة كل شيء إلى مكانه في السيارة ، وركبنا سيارتنا وقد آذن الفجر بالظهور ، وسألني صاحبي عن محتوى المذكرة التي وقعت في يد الضابط ، فأخبرته بمواضيعها ، فقال لي : كنت أخشى أن يكون فيها شيء يريب، فقد مر وقتٌ طويلٌ بيننا حول الهوية الشخصية حتى ضقتُ ذرعاً بأسئلته ، والحمد للّه الذي سلـ ـم .

قلت له :

- لكن لـماذا غمزتني بالابتعاد حالة تفتيش المذكرة ؟ فقال :

- لأنني أخبرته أن محتويات الحقيبة هي لي وليست لغيري ، وستكون مصيبةٌ أخرى تفتح تهمةً من العدم لو تحدثتَ أنت عن محتويات حقيبةٍ ليست لك في وجهة نظره .

شعرتُ بأن الكلام قد يكون أحياناً سهماً يوجهه المرء إلى نفسه إن زلّ به اللسان في مواقفَ كهذه .

وحططنا الرحال مؤقتاً في قريةٍ صغيرةٍ لـ ـم أعرف اسمها ، وبعد صلاة الفجر واصلت السيارة مسيرها نحو مدينة الطائف .



الطريق إلى الحجاز..

أشرقت الشمس بثوب قشيب على ركبنا المثابر وهو يطوي الطريق المعبد خلال شوارع مدينة الطائف الجميلة.. مدينة حديثة البـ ـنـ ـيان في غالب عمرانها وشوارعها.. ويبدو عليها جلال الصباح المتزيي بصفرة الأفق الحالـ ـم.. يضرب

بصفرته الجميلة على رؤوس الجبال المعشبة.. ويرتد إلى العين محدثا حالة من النشوة والارتياح .

وقفت بنا السيارة في مجمع عام للسيارات القادمة والذاهبة إلى نجران.. ولـ ـم يوافق السائق على نقلنا إلى حيث تقع سيارات الأجرة الذاهبة إلى جدة.. حيث ذهب يسجل رقم سيارته في مركز التأجير ((الفرزة)).. وحملنا أمتعتنا إلى الشارع العام حيث استوقفتنا سيارةٌ أخرى حملتنا إلى ((مركز الطائف – جدة للنقل والـ ـمواصلات)) وهناك أخذنا مقعدي السيارة الأماميين لنتجه إلى مدينة جدة .

وفي الموقع المزدحم بالسيارات والأفراد شربنا كوبين من الشاي قبل أن نواصل رحلتنا الأخيرة.. القلب يستشعر البلوغ إلى برّ الأمان كل ـما فاح عبير الكلـ ـمات المبشِّرة بالوصول.. وكلـ ـما وقعت العين على لوحة التحديد للـ ـمسافات في الطريق السريع المنظّم .



الدخول إلى أرض الحرمين..

هذه عقبة ((الهَدا)) الشهيرة.. ارتفاعٌ شاهقٌ فوق الأودية والسهول.. نُحِتَتْ في جوانبها طريقٌ فسيحةٌ معبدةٌ تتَّسع لأكثر من سيارات ثلاث في الاتجاه الواحد أحياناً..

يدور بخَلَدِي من أعلى قمة الشاهق الجبلي قدوم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلـ ـم إلى الطائف مع صاحبه ورفيقه زيد بن حارثة يطلب النصرة من ثقيف.. ولكن أين مرَّ عليه الصلاة والسلام ؟ فهذه الجبال الشاهقة التي تربض كالسّدّ المنيع بين الطائف والحجاز تكاد تـ ـملأ الأفق من كل اتجاهاته.. أيُّ ممرٍّ وأيُّ مسلكٍ اتَّخذه عليه الصلاة والسلام بين هذه الصخور المخيفة .

طريقٌ لا شك أنه يحمل الذكريات العظيمة لكل مؤمن يجعل من آثار النبوة منهجاً وتذكاراً ، ففي كل موقعٍ من هذه الرقعة الكبيرة ملاحم وتاريخ.. وكان رجالٌ يستحقون صفات الرجولة.. ملؤوا الأرضَ سلاماً وأَمْناً وعلماً وديناً ومسؤوليةً.. من هذه الأرض الجدباء والأمة الأمية سطع نورُ الرسالة الذي ملأ الآفاق بالهدى واحتار فيها العلماء والمفكرون.. وحاربها المنافقون والمشركون.. { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللّه بِأَفْواهِهِمْ واللّه مُتِمُ نُورِهِ ولو كَرِهَ الكَافِرُون} .

سألت رفيقي « السهل » عن خواطري المتدفقة الجياشة الملحة عليّ في معرفة الكيفية التي وصل بها الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى هذه المدينة الشاهدة على ذاتها يوماً بالجفاء وعدم الوفاء ، فقيل لي – ولست متذكراً من القائل حينها – :

- إن للطائف طرقاً عديدةً.. منها طرق تتخذ من الأودية سبيلاً للوصول ؛ ولكنها بعيدةٌ عن هذا الموقع الجبلي..

وقال آخر :

- إن هذه الطريق التي شُقَّتْ في الجبل إنما هي طريقٌ حديثةٌ غرضُها الوصول إلى المدينة من أقرب الاتجاهات.

لقد بذلت الدولة في إصلاح هذه الطرق وبناء الجسور والقنوات المائية أموالاً طائلةً، وذاك واضحٌ للعين من خلال البناء المتين الواسع والخدمة الممتازة التي أدتها شركات الرصف والإصلاح على صعيد المنافسة مع غيرها في إبراز المشاريع على أفضل الكيفيات..

لقد امتلأ صدري بجمال التصميم وروعة التنفيذ منذ أن لمستُ ذلك في مداخل الحدود الخضراء عندما درجتْ بنا عجلات السيارة المكشوفة خارج الخشبة العسكرية وداخل التركيبات المدنية في الطريق المؤدي إلى نجران وأنا بين السماد والغبار ورائحة الأغنام .

الطريق ما بين الطائف وجدة طريقٌ واسعٌ وفسيح الجوانب يَتَلَوَّى استجابةً للأرض التي وُضِعَ عليها.. فالـ ـمناطق الجبلية عاملٌ من عوامل الانعطاف والالتواء والانحدار والانزواء لطبيعتها . والـ ـمناطق الصحراوية عامل من عوامل الامتداد في الواقع المبسوط على ذات الكيفية القائمة من الصحراء أو الجبال.. فالطريق على غاية من الترتيب والتنظيم والروعة تصميماً واتساعاً وامتداداً .

ويُغَذِّي إحساسَ المسافرِ ما لديه من الأشواقِ واللواعج.. فرغم أننا في السيارة خمسةُ أفراد..إلا أن الرؤية البصرية للـ ـموجودات في خارج المركبة الصغيرة تختلف باختلاف الأحاسيس المخزونة في الأفئدة.. فالرؤية في عيني هي ثـ ـمرة الإعداد القلبي والاستعداد النفسي.. والـ ـموجوداتُ الخارجية هي في طبيعة تكوينها ووجودها مشابهةٌ لألوانٍ كثيرةٍ كنتُ قد شَهِدْتُها في تجربتي السالفة.. ولكن الجديد هو توزيع هذه الموجودات على هذه المساحة الأرضية.. وهذا هو سِرُّ جاذبية الجديد في التنقل البصري من مكان إلى آخر.. وتَخِفُّ هذه الجاذبية كلـ ـما تكرر الإبصار وتردد الفرد على هذه المواقع حتى صارت مألوفةً للعينِ ، ومرسومةً في تخطيط الذاكرة الجامعة لأشتات الظواهر والـ ـمعاني والـ ـمفاهيم والخبرات والشخوص..

أشار رفيقي إلى مساحة من الأرض ، وقيل لي : هناك جبل عرفات.. الموقع العظيم الذي تَحِنُّ إليه الأفئدةُ وتُدْمَى الأطرافُ وتُكْلـ ـم الجوارحُ.. فتحت بصري على مدى اتساع الحَدَقات لتـ ـمتلئ من مساحة النور الكامن في هذه البقعة المباركة.. مساحةٌ واسعةٌ ممتدةُ الأطراف والجوانب تنتهي بسلسلةٍ من الجبال البعيدة وقد توزعتْ خلالَها ظواهرُ متنوعةٌ.. منها ما هو طبيعيٌّ.. ومنها ما هو صناعيٌّ ابتدعتْه يد الإنسان.. فمساحةُ عرفات.. رغم فراغها من كل حركة إنسانية باديةٍ للعِيان إلا أن بصماتِه

ظاهرةٌ على الواقع بمجموعه.. الخيم والمباني الصغيرة.. والمسجد الفسيح ذو المنارة المرتفعة.. قيل : إنه مسجد نمرة الذي له في كل عام مظهر ومقام ونسك..

وهناك مزدلفة.. ويتراءى مسجدها الواسع بمنارته وقبابه.. وحوله المباني والخيم.. وسيارات وأفراد.. واختفى المنظر باعتراض هضبة جبلية لتبدوَ من جهة أخرى آثار ومعالم مِنًى.. أرض الجمرات وأربعٍ من أيام التشريق .

ولا أستطيع أن أُثْبِتَ حقيقةَ ما يخالط ذاتي خلال هذه اللحظات العظيمة المحرِّكة في ذاتي بمجموعها أسمى الأحاسيس الروحية.. وتَنَشُّطَ العقليةِ النابضةِ لتسجيل الصور والمعلومات مع الأحاسيس والانطباعات.. تُدْرِجُها إدراجاً لطيفاً ومتنامياً ومرتباً في قنوات الذاكرة المبهورة..

رفيقي المجاور لي في المقعد يسرد لي باختصارٍ شديدٍ معلوماته التي تَتَلاحق وتُلاحق المناظر المتتالية ، ويغذيها بالسرعة اللفظية تأثُّرُه بالسرعة الفائقة التي تطوي بها السيارة الطريق ، وأشار لي صاحبي أن أَمُدَّ بصري لأرى أرض اللّه الحرام.. **مكة المكرمة.. منازلها.. جبالها.. يا لَلْعَظَمَة.. هذا هو الكيان والوطن.. والمنبع والتاريخ والوجدان.. والمنطلق والغاية.. هذه هي الأم التي أَلْقَتْ بأفلاذِ أكبادها إلى كل أنحاء العالم.. وعلى ذات المقدار في العطاء.. ها هي تستردُّ يوماً بعدَ يومٍ فروعاً من أصولها.. حُجّاجاً ومعتمرين ومهاجرين..**

ألم يهاجر منها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يوما إلى المدينة المنورة ؟ أَلَمْ يهاجر منها الصحابة الأتقياء إلى الحبشة ؟ ألم يهاجر منها أبوبكر الصديق هروباً بدينه إلى طريق اليمن فلقيه ابن الدُّغُنَّة وأعاده في إجارته قبل أن يصل إلى حيث يريد؟ ألم يهاجر منها أتباع الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المدينة قبله وبعده ؟

ومن تلك الهجرات المباركة الأولى تتالت هجراتٌ لاحقةٌ من حيث رضي المسلمون وجودهم وكيانهم.. شعارهم قوله تعالى : {ألم تَكُنْ أَرْضُ اللّه واسِعَةً فتُهاجروا فيها} عطاءٌ وأخذٌ.. وأخذٌ وعطاءٌ.. ومكةُ أرضُ المعاد والأمن والإيمان وموقع البيت وزمزم والمقام.. والوجهة التي إليها يومئُ كلُّ مؤمن باللّه بوجهه وقلبه..

واستقبلتنا مساحاتٌ جديدةٌ من الأرض الفسيحة الجرداء.. وأودية وهضاب ومرتفعات.. قيل لي : إن هناك وادي فاطمة.. وفي الجهة المقابلة نهاية الأرض الحرام.. الحُدَيْبِيَة.. حيث اجتمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بوفود المشركين للتفاوض حول الدخول إلى مكة.. وفيها بيعة الرضوان.. الفداء والإخلاص.. وتتداخل الذكريات والمعلومات وتنشط الذاكرة لِتمدَّ الوُجدانَ بما خَزَنَتْهُ خلال مرحلة التجميع.. ليكون رافداً حياً يربط بين الرؤية البصرية ومادة التاريخ.. فالأرض هي الأرض.. والموجودات الطبيعية هي ذاتها مع فارق النحت والتطبيع للأحداث المستجدة ورصف الطريق وبناء الجسور والقنوات..

شعرتُ أن السيارة قد ارتفعت على جسر صغير فأشرفتُ لأَرَى.. فقال لي زميلي:

- انظر... هذا مخيَّمٌ عسكريٌّ ونقطةُ تفتيشٍ ولائحةٌ كتب عليها «للمسلمين فقط»، إنه آخرُ حَدٍّ من حدود الأرض الحرام لا يدخله غير المسلمين.. ومهمة الجنود رَدُّ كلِّ أجنبيٍّ عن هذه الأرض الطاهرة ليتخذ طريقاً أخرى..

وأحسستُ بالارتياح والمِنَّة والنعمة.. فالمسلم وحده يشعر بأنه متفردٌ بهذه الأرض المباركة.. لما وفقه اللّه إليه من الإسلام والإيمان.. فقلتُ مطمئناً :

- { الحمدُ للّه الَّذي هَدانا لهذا وما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لولا أنْ هَدانا اللّه }..

بالطبع لـم نكن على طريق نقطة التفتيش.. فنحن قادمون من الطائف.. والنقطة تحتضن الطريق المؤدي إلى مكة المكرمة.. ولكننا نحاذيها مروراً على الجسر المتفرِّع الذي يربط بين جهات عديدة...

ظهرت لنا على الطريق الفسيح لائحات الدعايات التجارية لأنواع البضاعات والصناعات موزعة على جانبي الطريق بين اللائحة الكبيرة والـمتوسطة والصغيرة.. وبين الحين والآخر تظهر لائحة المسافات التي كتبت عليها المسافة التنازلية المحدِّدَةِ انطِواءَ الكيلومترات بين الطائف وجدة.. وبين مكة وجدة.. حيث اندمجت الطريق وصارت بعد عبورنا على الجسر ومركز التفتيش طريقاً واحدةً كلُّها تؤدي إلى جدة..

وعلى الطريق المحاذي تشاهد السيارات الذاهبة إلى مكة والطائف.. وأعدادها تفوق التصور العددي المتوقع في ذاكرتي.. ومررنا على مبان متفرقة ومحطة للبترين.. ولائحةٌ **هَزَّتْ كَياني** حَقّاً كُتب عليها « المطار » !

شعرتُ رغم جهلي بالطريق وما تبقى منه بالتحديد أننا وصلنا إلى الغاية القصوى من رحلتنا الطويلة.. قال لي صاحبي : **هذه لائحة المطار.. لكنا لازلنا على مسافة بعيدة من جدة..**

قلت : **وما فائدتها إذن ؟**

قال : **لأن الحجاج يخطئون الطريق فتأخذهم الطرق الفرعية التي تذهب بهم إلى المدينة المنورة أو بحرة.. أو تعيدهم من حيث جاؤوا ويذهب وقتهم هَدَراً.. فلائحة المطار تحدد لهم الطريق الرئيس إلى وسط العاصمة الكبيرة.. جدة..**

وما أكثرُ اللوائح المنظمة للسير في هذه الطريق.. ومن أهمها لوائح توجيه السائق..

وقد يكون مع المستعجل الزلل ..
تـمهل.. أولادك في انتظارك..
القيادة فن وذوق وأخلاق..

لا تسرع فالـموت أسرع..

الطريق ملك الجميع..

التزامك بإشارات المرور دليل على وعيك..

ويبلغُ الانبهارُ مَداه بفردٍ مثلي قَدِمَ من عالـم الخوف.. وتَنَقَّلَ في أحوالِ الوَجَلِ والتَّرَقُّبِ والقَلَق.. فيرى نفسَه مع الأمنِ والاطمئنانِ أَقْرَبَ مِن قابِ قَوسينِ أو أدنى..

وظهرت مباني المدينة المرتقبة.. عروس البحر الأحمر..

قال لي رفيقي « السهل » وقد اتسعتْ حَدَقَاتُه أكثر مما أَلِفْتُهما :

- انظر.. هذا الجسر القادم هو آخر التفرعات ، ومنه ندخل إلى الطريق الرئيس، وتلك بيوت الإسكان الحكومي تبنيها الدولة لتخفيف وطأة الحاجة للمساكن .

وأخذني العجب من كثرتها وفخامتها واتساع رقعة الأرض التي استغلت لإقامتها..

وأخذ زميلي يسردُ المعلوماتِ عن الإسكان والإيجار وكثرة المنازل وتعدد مواقع التشييد العمراني في العاصمة ونواحيها..

وصرنا وجهاً لوجهٍ أمام الشارع المؤدي إلى وسط المدينة.. واستغرقت في المشاهدة حتى كاد زحام المرئيات يعتـم عيني.. وضحك « السهل » بملء فيه وقال :

- لا تعجلْ.. ستكون هذه الأشياء معتادة بالنسبة إليك خلال أيام قلائل .

وخلال مسير السيارة في الشوارع الرئيسة والـمتفرعة لـم أستطع أن أحدد الاتجاه ولا الغاية المقصودة.. وإنما عرفتُ أنني قد دخلتُ « **دائرةَ الأمنِ المرتَقَب** ».. وأنني على موعدٍ قريبٍ مع أهلي وأسرتي جميعاً .



نهاية الطريق..

وقفت السيارة بنا تحت جسرٍ كبيرٍ.. وذلك بعد إشارةٍ من « السهل » بالوقوف..

ونزلنا نحن وأدواتنا على جانب من الطريق.. وأخبرني صاحبي أن وجهتنا على مقربةٍ من موقعنا.. وأشار إلى سيارة « التاكسي » أن تقف..

وسرنا في شارعٍ فسيحٍ بدأ يجاورنا فيه جسرٌ ضخمٌ حتى مسافةٍ ليست بالبعيدة إذ قال لي صاحبي :

- هذا شارع المطار..

وصَدَّقَتْهُ اللوحةُ التي مررنا عليها.. وطائرةٌ صغيرةٌ رُكِّبَتْ على قاعدةٍ من الإسمنت المسلح رمزاً للطيران.. ولم أتبين بعد ذلك من المعالم شيئاً لكثرةِ تداخلها في الذهن وجِدَّتِها على العَين.. حتى دخلت بنا السيارة في شارع صغير ينتهي بمسجدٍ عليه منارةٌ خضراءُ صغيرةٌ.. قال لي صاحبي :

- هذه هي « الشَّرَفِيَّة ».. وهذا مسجد رمضان..

دارت السيارة في الشارع الصغير ومنه دلفت إلى شارعٍ آخرَ فرعيٍّ ووقفتْ أمامَ عمارةٍ ملونةٍ ظهر على مقدمتها اللون الغامق البني.. ومدخلٌ رُصِفَ بالمرمر المنوع.

ونزلنا هناك حيث أخرج « السَّهلُ » النقودَ وسلمها للسائق بعد استفراغ الأدوات..

صعدنا على سُلَّم العمارة وقلبي يَخْفِقُ خفقاناً عجيباً ويعتريني إحساسٌ غريبٌ.. وضغط رفيقي « السهل » على جرس الشقة رقم ٤ ، وفي أعلى الباب كتب بخطٍّ جميلٍ.. « مترل إمام المسجد السيد علي بن أبي بكر المشهور » .. وانفتح الباب وأطلَّ منه ولدي نِزار.. وكان أولَ من سَلَّم عليَّ واحتضنني.. وجاء أبي يستقبلني استقبالاً

لا نظير له ولا مثال ولا يتكرر مرتينِ على الإطلاق.. **دَفَنْتُ حينها هَمِّي وآلامي وكَرْبِي وغُربتي في صَدْرِ أبي.. وسالَتِ الدُّموعُ مِدراراً.. وعَجَزَتِ الألْسُنُ عن التعبير بأكثرَ من قولها :** ((**الحمد للّه.. الحمد للّه**)) ..

واحتضنتُ أطفالي ، وكان ابني نزار يبكي بكاءً حاراً أشعرني بإحساسه العميق وإدراكه لما أنا وهو وكلُّنا فيه من شوقٍ ووُجدان..

ثم أمي العزيزة وأخواتي.. ومسحتُ دموعي الكثيرة.. وكانت دموعَ فرحٍ وارتياح..

واغتَسَلَ عنها هَمٌّ وغِشاوَةٌ جعلتني أتفحَّصُ الجميعَ وأقرأ ملامح الجميع.. فقد حُرِمْتُها سنينَ عديدةً..

وتذكرتُ وأنا قابعٌ بجوار أُمِّي كلمةَ أبي عبرَ الهاتف وأنا في نجران وقوله :

((الحمدُ للّه الذي بنعمتِه تَتم الصالحاتُ)) ..

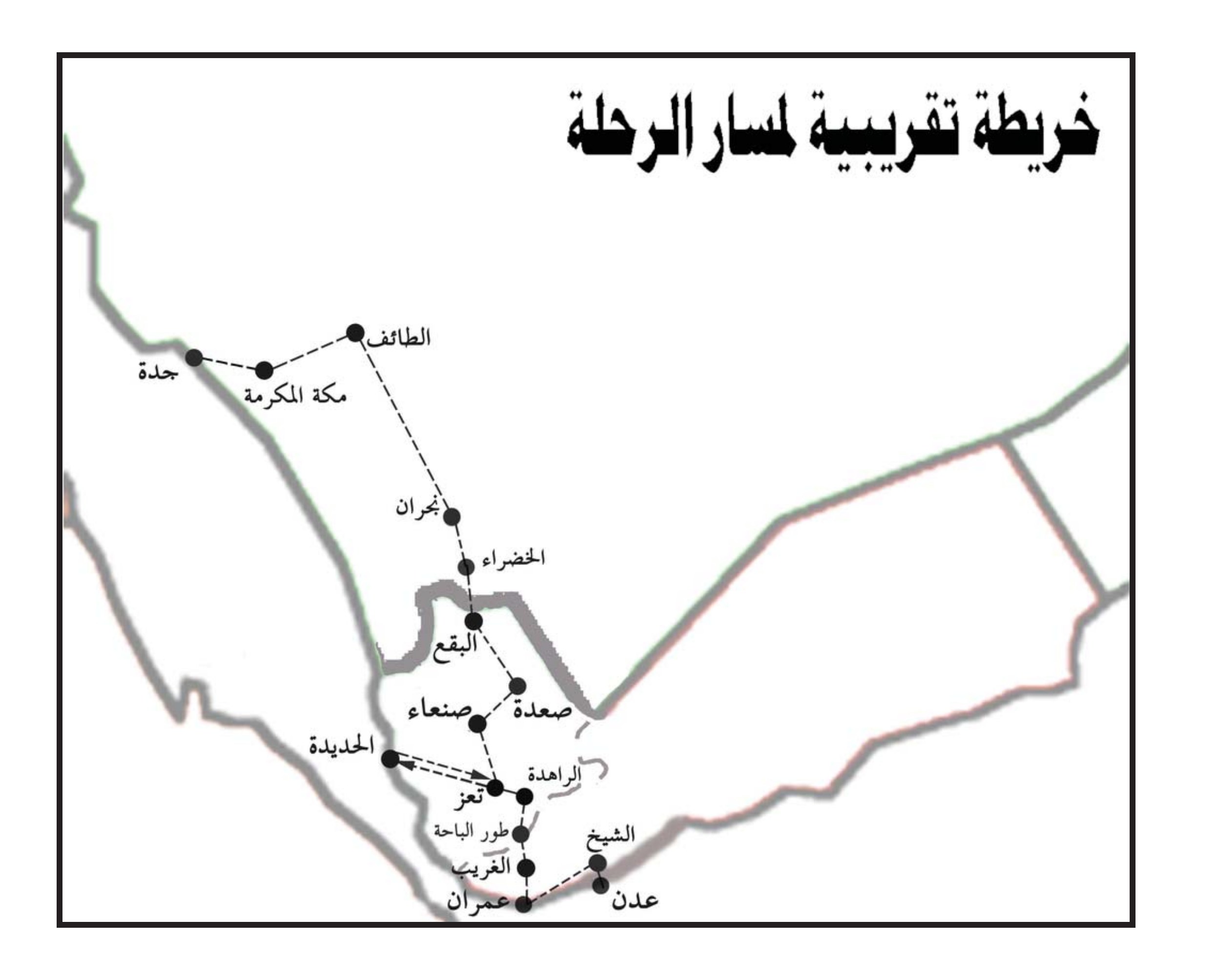
وتلميحَه لي بالعزم في رسالتِه الأخيرةِ قبل مغادرتي الدائرةَ الحمراءَ.. وقولَه :

إذا كنتَ ذا رَأْيٍ فكُنْ ذا عَزيمَةٍ فإِنَّ فَسادَ الرَّأْيِ أَنْ تَترَدَّدا

وصلى اللّه على سيدِنا محمدٍ النبيِّ الأمي وعلى آلِهِ وصحبِه وسَلم

وآخرُ دَعوانا أَنِ الحمدُ للّه رَبِّ العالمين

تمتِ الرحلةُ بعونِ اللّه الكريم


خريطة تقريبية لمسار الرحلة
الطائف
جدة
مكة المكرمة
نجران
الخضراء
البقع
صعدة
صنعاء
الحديدة
الراهدة
تعز
طور الباحة
الشيخ
الغريب
عدن
عمران

الفهرس

